سيغموند فرويد

الحلم وتأويله

ترجمة :
جورج طرابيشي

طبعة جديدة

دار الطليعة - بيروت

بيروت ـ لبـــنان

ص. ب ١١١٨١٣

تلفون ٣١٣٦٥٩
٣٠٩٤٧٠

الطبعة الرابعة

آذار (مارس) ١٩٨٢

سيغموند فرويد

الحُلمُ وَتأوِيلُه

ترجمة:
جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

هذه ترجمة لكتاب

Le Rêve et Son Interprétation

Par

Sigmund Freud

- ١ -

ما كان للبشرية أن تحمّل نفسها مشقة تأويل احلامها في العصر القابل للوصف بأنه عصر ما قبل العلم . فالاحلام التـي تبقى في الذاكرة عند اليقظة كانت تعد تجليا نافعـا او ضارا للقوى العليا ، من آلهة او أبالسة . ومع تفتح الروح العلمي ، اخلت كل تلك الميتولوجيا الاريبة الساح لعلم النفس ؛ وينجمع اليوم العلماء قاطبة ، خلا نزرا يسيرا منهم ، على عزو الحلم الى النشاط النفسي للنائم بالذات .

بيد انه بات من الضروري ، بعد نبذ الفرضية الميثولوجية، البحث للحلم عن تأويلات جديدة . فما الشروط التي يحـدث فيها الحلم ؟ وما صلاته بالحياة النفسية في حالـة اليقظة ؟ وكيف تتمكن التنبيهات الآتية من الخارج من التأثير على النائم ؟ ولمَ تلك التفاصيل التي كثيرا ما ينفر منها ذهـن الانسان الصاحي ، ولم ذلك التنافر بين وسائل الحلم التعبيرية وبين الحالات الوجدانية التي تصاحبه ؟ وما مصـدر عدم استقرار الحلم اخيرا ؟ لماذا يرده الذهن عنه فور الاستيقاظ وكأنه عنصر

غريب ، ولماذا يمحي ، كليا او جزئيا ، في الذاكرة ؟ ان هـــذه المعضلات ، التي ما ونت منذ عديد القرون تتطلب حلا ، لم تجد حتى الان حلا مرضيا .

ان المعضلة التي تحظى باهتمامنا الاول ، معضلة دلالـــة الحلم ، لهي ذات وجهين : فمن جهة اولى نبحث عما يعنيـــه الحلم من وجهة النظر السيكولوجية وعن مكانته في منظومـــة الظاهرات النفسية ، ونريد من الجهة الثانيـــة ان نعرف هل الحلم قابل للتأويل وهل ينطوي مضمون الحلم ، مثله مثل اي نتاج نفسي آخر قد نميل الى مماثلته به ، على «معنى» ؟

تواجهنا هنا ، باعتبار الوضع الراهن للمسألة ، ثلاثـــة اتجاهات متمايزة بلا لبس . فالاتجاه الاول ، الذي يبدو وكأنه صدى متأخر للعصر الذي كان ينعزى فيه الى الحلم اصل خارق للطبيعة ، يروج له عدد من الفلاسفة . فحياة الحلم في نظرهم يكمن مبدؤها في حالة خاصة من النشاط النفسي : فهو ضرب من ارتقاء الروح نحو حالة عليا . ذلكم هو ، على سبيل المثال ، راي شوبرت : «بالحلم يتحرر الفكر من قيود الطبيعة الخارجية، وتتملص الروح من اغلال الشهوانية» . ويؤكد آخرون ، من غير ان يتطرفوا هذا التطرف ، أن الاحلام في جوهرهـــا تنبيهات نفسية ، وانها تجليات لبعض القوى النفسية (١) التي تحول حالة اليقظة دون تطورها تطورا حرا . ومن المعلوم ان غالبيـــة المراقبين يعزون الى تجليات الحياة الحلمية تفوقا بينا في عدد من الميادين (ميدان الذاكرة على سبيل المثال) .

اما الاطباء الذين يكتبون عن الحلم ، فيقولون ، بوجه عام ، براي معاكس جذريا لراي الفلاسفة ، فهم يكادون لا يقرون للحلم بأي قيمة بوصفه ظاهرة نفسية . فهو ينجم في رأيهم عن تنبيهات

---

١ ــ شرنر «تخيلات الاحلام» .

جسمانية وحسية تأتي الى النائم من العالم الخارجي ومن اعضائه الداخلية على حد سواء . وعلى هذا الاساس ، يكون مضمون الحلم عاريا من كل معنى وعصيا على كل تأويل ، مثله مثل النغمات التي تصدر عن ملامس البيانو حين تعزف عليها يد لا خبرة لها بالموسيقى . اما تعريفه في هذه الحالة فهو ببساطة كما يلي : «تظاهرة مادية عديمة الجدوى دائما ومرضية في غالب الاحيان» (بينغ) . اما تفسير الاشارات والرموز التي تميز الحياة الحلمية فيكمن ، بالتالي ، في النشاط غير المتساوق لمجموعات معينة من الخلايا تظل في حالة يقظة في الدماغ تحت سلطان تلك التنبيهات الفيزيولوجية ، بينما يلبث باقي الجسم غارقا في النوم .

ويتشبث الحس الشعبي ، اخيرا ، بمعتقده القديم ، من دون ان يتأثر ــ الا في أضيق الحدود ــ بأحكام العلم تلك ، ومن دون ان يكترث بالاصول العميقة للحلم . ان للحلم في نظره معنى ، وهذا المعنى ينطوي على نبوءة . وحتى تستخلص هذه النبوءة من مضمون الحلم ، الذي غالبا ما يكون مبهما ملغزا ، فلا بد من اللجوء الى بعض الطرائق في التفسير ، وهذه الطرائق لا تعدو ان تكون بوجه عام استبدالا لمضمون الحلم ، كما انطبع في الذاكرة ، بمضمون آخر . ومن الممكن ان يتم هذا الابدال تفصيلا ، بواسطة «مفتاح» لا يجوز ان يتبدل . ومن الممكن ايضا استبدال الموضوع الاساسي للحلم دفعة واحدة بموضوع آخر لا يعدو الاول ان يكون رمزا له .

واهل الجد يبتسمون لهذه الصبيانيات ، ولسان حالهم جميعا التعبير الشائع : «انها أضغاث أحلام» .

- ٢ -

كم كانت دهشتي عظيمة حين تبينت ذات يوم ان اصدق تصور للحلم لا ينبغي البحث عنه لدى الاطباء ، وانما لدى الجهلة بالطب ممن يبقى لديهم ذلك التصور مختلطا بالخرافة والتطير ! كنت قد انتهيت ، فيما يتعلق بالحلم ، الى نتائج غير متوقعة أتاحها لي منهج جديد في الاستقصاء السيكولوجي ، وهو عين المنهج الذي ادى لي خدمات جلى في معالجة ضروب الحصر والوساوس والافكار الهذائية وما الى ذلك من الصراعات النفسية، والذي جرى تبنيه منذ ذلك الحين باسم «التحليل النفسي» من قبل مدرسة بأسرها من الباحثين . فمعظم هؤلاء المتهنين ما امكنهم الا ان يقروا بالتشابهات الكثيرة القائمة بين الحياة الحلمية وبين شتى انواع الاضطرابات السيكولوجية التي يمكن ملاحظتها في حالة اليقظة . وعليه ، بدا لنا انه من المفيد والمثير للاهتمام ان نطبق على صور الحلم نفس طريقة التقصي التي اثبتت

فاعليتها فيما يتعلق بالصور السيكوباتية (١) . فافكار الحصر وافكار الوسواس غريبة عن الشعور السوي ، غربة الاحلام عن الوعي في حالة اليقظة . وجذور تلك الافكار ، كجذور الحلم ، تكمن في اللاشعور . ولئن ذهب الرأي الى ان هناك فائدة من وجهة النظر العملية من دراسة نشوء تلك الصور السيكوباتية وتطورها ، فهذا لانه كان قد قام البرهان تجريبيا على انه يكفي ان تكتشف السبل اللاشعورية التي تلتحق عبرها الافكار المرضية لفرد من الافراد بباقي مضمونه النفسي ، حتى يجد العرَض العصابي حله وحتى تصبح الفكرة المرضية قابلة كل القابلية للقمع والمنع . انني ادين اذن للطب النفسي بالطريقة التي استخدمتها لحل مشكلة الحلم .

من اليسير وصف هذه الطريقة ، لكن تطبيقها يقتضي خبرة ومهارة . لنفترض ان امامنا مريضا تتسلط عليه فكرة حصرية . ولندعُه الى تثبيت انتباهه على هذه الفكرة ، لا لكي يحلم بها كما في اوقات سابقة ، وانما لكي يرصد بوضوح وجلاء وجوهها كافة ويطلع الطبيب ، بلا تحفظ ، على كل ما يعن بباله . في غالب الاحيان يبدأ المريض بالاجابة بأن انتباهه عاجز عن استيعاب اي شيء . وهنا لا بد من تكذيبه والتأكيد الجازم له بانه من المستحيل ان تنعدم لديه الصور . وبالفعل ، سرعان ما تنهمر افواج من الخواطر ومن تداعيات الافكار ، لكنها تكون مسبوقة على الدوام بملاحظة من المريض يعلن فيها انها لامعقولة وعديمة الدلالة ، او يزعم انها خطرت بباله مصادفة من دون ان يربطها شيء بالموضوع المقترح . عندئذ نتبين ان هذا النقد الذاتي على وجه التحديد هو الذي حال بين المريض وبين اظهار صوره والإبانة عنها او حتى وعيها . واذا امكننا ان نجعله ينكص

---

١ ــ السيكوباتية : مرض الشخصية . «م»

عن انتقاد افكاره ويتابع بكل بساطة التصريح عن جميع التداعيات التي سترد الى ذهنه بفعل مجهود انتباهي متصل ، حصلنا على مادة نفسية ذات صلة مباشرة بالفكرة المرَضية البدائية ، تتيح امكانية اكتشاف التداعيات القائمة بين هذه الفكرة وبين حياة المريض النفسية ، وبفضلها يستطيع الطبيب في نهاية الامر ان يستبدل الفكرة المرَضية بفكرة جديدة متلائمة بدقة مع متطلبات مريضه السيكولوجية .

لا يتسع المجال هنا لا لتمحيص الفرضيات التي تقوم على اساسها هذه التجربة ، ولا لدراسة الاستنتاجات الواجب استخلاصها من كون هذه التجربة مؤكدة النجاح . حسبنا ان نقول اننا بتثبيتنا انتباهنا على التداعيات «اللاإرادية» ، على التداعيات «التي تحول دون التفكير» ، على تلك التي يسرع النقد الذاتي الى نبذها باعتبارها عديمة الدلالة ، نحصل الى جانب الفكرة المرضية على مادة تسمح لنا بأن نجد لتلك الفكرة حلا . واذا طبق المرء هذه الطريقة على نفسه ، فان خير وسيلة لمتابعة التجربة هي ان يسجل ، كتابةً ، الافكار التي لا يجد من تفسير لظهورها ، وهذا طرداً مع حضورها وتداعيها .

اود الان ان ابيِّن النتيجة التي يمكن الوصول اليها بتطبيق ذلك المنهج في تأويل الحلم . ان اول حلم يخطر للبال يمكن ان يصلح للبرهان على ما ارمي اليه . لكني افضل ، لاسباب شتى، اختيار الحلم الذي حلمته في الليلة الماضية . فهو قصير ، وهذا ما يتيح لنا استعماله ، ثم ان ما حفظت منه لا معنى له ومبهم ومتداخل وفق المراد . اليكم مضمون الحلم الذي سجلته بعد الاستيقاظ مباشرة :

(اجتماع على مائدة ــ او على مائدة مضيف . يقدمون سبانخ . السيدة إ. ل جالسة بقربي ومستديرة نحوي . يدها تلامس بألفة ركبتي . اهمّ بابعاد يدها . تقول لي : «كان لك على

الدوام عينان في غاية الجمال !» . ألمح بإبهام شيئا يشبه رسما يمثل عينين ، او بلورتي نظارة) .

ذلك هو الحلم ، او على الاقل ، ذلك ما امكنني ان أسجل منه . انني اجده غامضا ، عديم الدلالة ، يبعث على شيء من الدهشة . فالسيدة إ. ل شخص ربطتني به صلات صداقة واهية ، ولم ارغب قط ، على ما اعلم ، في علاقات امتن . لقد انقضى زمن طويل منذ ان رايتها آخر مرة ، ولا احسب انني سمعت احدا يتحدث عنها في الآونة الاخيرة . انني لا اعثر ، في سيرورة هذا الحلم ، على اي اثر من الوجدانية .

كلما امعنت فيه تفكيرا ، بدا لي اعصى على الفهم . وسأقوم الان بفحصي الاستبطاني ، وسأسجل الافكار التي ستراودني ، بلا موقف مسبق وبلا انتقاد . لكني لن اتأخر عن ان اكتشف ان هذا العمل اسهل بكثير اذا قسَّمت اولا الحلم وعناصره ، واذا جمعت حول هذه الاجزاء المعزولة الافكار المرتبطة بها .

اجتماع ، مائدة ، او مائدة ضيافة . انني اتذكر بادىء الامر الحادث الذي ختم سهرة الامس . فحين كنت اهم بمغادرة حفل صغير بصحبة صديق ، عرض عليّ هذا ان نستقل عربة لايصالي الى بيتي . واضاف قوله : «انني احب كثيرا اختراع العداد . فأنت تتبعه بعينيك ، وتنشغل به ، وتتسلى ...» . وحين جلسنا في العربة ، وحرك الحوذي زجاج النافذة بحيث امكننا ان نقرأ الرقم : ٦٠ هيلراً ، قلت متابعا دعابته : «ما كدنا نقعد حتى صرنا مدينين . ان العداد في العربة لكمائدة الضيافة؛ فأنت تشعر بأنك صرت شحيحا وانانيا من كثرة تفكيرك بالدَين الذي يتزايد . فهذا الدَين يتعاظم بسرعة كبيرة ، وانك لتخشى ان يذهب مالك سدى . وعلى مائدة الضيافة ايضا كان شاغلي الدائم ، المضحك بعض الشيء ، الا ادع الحساب يتراكم في غير صالحي» . واستشهدت ، من غير مبرر – انني لأقر بذلك –

ببيتين لغوته :

انت تهبنا الحياة

فتجعلنا ، نحن الفقراء ، نغل عنقنا بالدين ...

وثمة فكرة ثانية تتعلق بمائدة الضيافة : فقد دارت بيني وبين زوجتي مناقشة قبل بضعة اسابيع ونحن على المائدة في فندق بالتيرول . فقد ضايقني منها ان تبش وجها لبعض اشخاص كنت اريد ان اتحاشى بأي ثمن معشرهم . ويخيل الي ، ههنا ايضا ، ان مائدة الضيافة سببت لي ، بطريقة او بأخرى ، إحباطا . وما يدهشني الان ايضا التباين بين موقف زوجتي على تلك المائدة وبين الموقف الذي اخذته في الحلم السيدة إ. ل التي كانت تدير وجهها كله الي .

ملاحظة اخرى : ان هذا التفصيل من تفاصيل حلمي ينسخ مشهدا صغيرا دار بيني وبين زوجتي يوم كنت اغازلها سرا . والملامسة تحت المائدة كانت قد بادرتني بها ردا على رسالة طلبت فيها يدها للزواج . والمراة الغريبة إ. ل هي التي احتلت في الحلم مكان زوجتي .

ان السيدة إ. ل ابنة رجل كنت ادين له بالمال فيما غبر من الزمن . هنا اكتشف صلة ما كانت لتخطر لي ببال بين تفاصيل حلمي والافكار التي ايقظها فيّ . فلو تتبعنا سلسلة التداعيات التي تنطلق من واحد من عناصر الحلم ، لوجدنا انفسنا نعود بسرعة الى عنصر آخر . وبعبارة اخرى ، ان بين الافكار التي يوقظها الحلم روابط يتعذر تمييزها وإدراكها في الحلم نفسه .

فحين يبدو للعيان ان شخصا من الاشخاص يعوّل على خدمات الآخرين من دون ان يتنازل فيكلف نفسه اي جهد او مشقة ، فما العبارة التي درجت العادة على استخدامها لتقريعه؟ اننا نقول له : «هل تعتقد اننا هنا لجمال عينيك ؟» . وهكذا لا يكون للكلمات التي تفوهت بها السيدة إ. ل في حلمي : «كان لك على الدوام عينان في غاية الجمال» من معنى سوى : «ان ما

نفعله انما نفعله حبا بك ؛ ولقد حصلت بالمجان على الدوام على ما ترغب فيه» . وبديهي ان العكس هو الصحيح . فقد جعلني اصدقائي ادفع غاليا على الدوام ثمن مجاملاتهم وملاطفاتهم . ولهذا ادهشني الركوب المجاني في العربة ، مساء امس ، مع صديقي وكأنه امر خارق للمألوف .

من جهة اخرى ، كثيرا ما كنت وجدت نفسي مدينا لذلك الصديق الآخر الذي تناولنا العشاء على مائدته مساء البارحة . وكنت قد فوّت ، قبل ايام قليلة ، فرصة لأفي بما عليّ له . فانا لم اقدم له في حياتي قط سوى هدية واحدة ، وهي عبارة عن كأس قديمة رُسمت عيون على طول مدارها . انها تسمى «أوشيال» ، وهي تقي من عين الحسود . والصديق الذي اتكلم عنه طبيب عيون . وبالامس ايضا سألته عن اخبار مريض كنت قد ارسلته اليه لاستشارته بصدد مسألة نظارات .

لنلاحظ هنا ان جميع عناصر حلمي تقريبا متضمنة في الافكار التي ابنتها اعلاه . ويبقى ان نتساءل ماذا يمثل السبانخ المقدم على مائدة المضيف . وفي الحق ، يشير هذا السبانخ الى حادث جرى في يوم سابق في بيتي ، على المائدة ، حين ابى طفل ــ وهو ذاته الذي يمكن ان يدعي لنفسه العينين الجميلتين ــ ان يأكل من السبانخ . وكنت انا ايضا أقرف ، في طفولتي ، من هذه الخضار ، ولم يتبدل ذوقي وما صرت استطيبها الا في زمن متأخر . هكذا يكون ذكر تلك الاكلة قد ربط بصورة صبيي الصغير صورة طفولتي بالذات . كانت والدتي تستهجن سلوكي ذاك وتقول لي : من حسن حظك ان يكون لديك سبانخ ، فما اكثر الاولاد الذين يتمنون لو كانوا مكانك !» . وهذا يعيدني الى واجبات الاهل تجاه اولادهم ، وتأخذ كلمات غوته :

انت تهبنا الحياة

فتجعلنا ، نحن الفقراء ، نغل عنقنا بالدين ...

معنى جديدا بعد اتضاح صلتها بما تقدم .

لنتوقف هنا ولنلق نظرة سريعة على النتائج التي توصلنا اليها حتى الان عن طريق تحليل ذلك الحلم . لقد بدات بأن عزلت جميع تفاصيله ، قاطعا بذلك الروابط التي كانت تربطها بعضها ببعض ؛ ثم تتبعت انطلاقا من هذه التفاصيل تداعيات الافكار التي تواردت في ذهني . وحصلت بهذه الطريقة على جملة من افكار وذكريات تعرّفت بينها عددا لا بأس به من العناصر الاساسية بالنسبة الى حياتي الداخلية . وقد اتضح ان هذه المادة ، بعد تسليط الضوء عليها عن طريق تحليل الحلم ، ذات صلة وثيقة بالحلم نفسه ؛ وهذا امر ما كنت لاكتشفه لو اكتفيت بمجرد فحص بسيط لمضمون الحلم . لقد كان الحلم متفككا ، غير قابل للفهم ، ومجردا من كل عنصر وجداني . وبالمقابل ، يتحسس المرء في الافكار التي استخلصتها من خلفيته شحنة وجدانيةمكثفة لها ما يفسرها ويعللها ؛ وهذه الافكار تترابط فيما بينها بمنطق كامل ، والصور الاهم من غيرها تتكرر في تلك التداعيات اكثر من غيرها ايضا . ان بعضا من هذه الافكار الاساسية لم يظهر في مضمون الحلم الذي اقترحناه كمثال : التعارض بين «المغرض» و«المتجرد» ، وفكرة «الدين» ، واخيرا فكرة «الهبة المجانية» . وكان في مستطاعي ، لو وددت ، أن ابيّن ان جميع خيوط تلك الحزمة من الافكار التي تكشفت لي بطريق التحليل تفضي الى عقدة واحدة ، فيما لو شددت عليها بقوة اكبر . لكن هناك ، الى جانب مصالح العلم ، مصالح خاصة تنهاني نهيا قاطعا عن نشر بحث كهذا . اذ ان مثل هذا العمل كان يقتضيني ان اميط اللثام عن بعض مشاعري الحميمة التي كشفها لي التحليل ، لكن التي لا يحلو لي ان اعترف بها امام نفسي . فخير لي اذن أن الزم الصمت . واذا سألني سائل: لماذا لم يقع اختياري على حلم استطيع ان ابوح بتحليله بلا

تحفظ ولا تقييد بحيث يمسك القارىء على نحو افضل واعمق بمعنى الافكار المعروضة وبارتباطها ، فان الجواب على ذلك لبسيط : فكل حلم آخر كان يمكن ان أختاره كان سيرتد في خاتمة المطاف الى نفس تلك العناصر الاساسية التي تصعب المجاهرة بها والتي ستقسرني في هذه الحال على التكتم نفسه. ولن تتضاءل الصعوبة فيما لو اخضعت للتحليل حلم شخص غريب ، اللهم الا اذا تم ذلك في شروط يمكنني فيها ان أزيح الستر كلها من دون ان اخون ذاك الذي صارحني بحلمه .

انه لفي وسعي من الان تحديد الحلم بأنه بديل عن كل **المضمون العاطفي والعقلي لتداعيات الافكار التي قادني اليها التحليل** . ولست ادري بعد طريقة تولد الحلم عن هذه الافكار ، لكن في مقدوري ان اجزم من الان انه من الخطل الا نرى في الحلم سوى ظاهرة مادية عادمة الاهمية بالنسبة الى علم النفس ولا علة لها سوى النشاط الدائب لبعض مجموعات الخلايا اثناء الرقاد .

لنلاحظ هنا ان مضمون الحلم اقصر بكثير من كل تلك الشبكة من الافكار التي يبدو وكأنه بديلها . ثم ان الحلم قد نجم ، كما بيَّن لنا التحليل ذلك ، عن حادث عديم الاهمية وقع في السهرة السابقة .

طبيعي انني لا اريد ان أستخلص استنتاجات عامة من تحليل حلم واحد . لكن حين توضح لي التجربة ان اول حلم يرد بالبال يقودني ، بمجرد اخضاعه للتحليل الآنف الذكر ، الى اشباه تلك الترابطات بين الافكار ، وان تلك الافكار ليست مترابطة فيما بينها ترابطا مدهشا فحسب بل هي تستنسخ ايضا عناصر الحلم جزئيا ، فقد يكون من حقي في هذه الحال ان اؤكد ان تداعيات الافكار التي لاحظتها لاول مرة ليست وليدة المصادفة المحضة ؛ بل قد يخيل الي انه من المباح لي ان اضع واحد

مصطلحات عملي الجديد .

انني اقيم مقابلة بين الحلم ، كما القاه في ذاكرتي ، وبين المادة التي سيقدمها لي التحليل فيما بعد . وانا اطلق على الاول اسم المضمون الظاهر للحلم ، واطلق على المادة ، بدون اي تمييز آخر ، اسم المضمون الكامن للحلم .

وهانذا اواجـــه مشكلتين جديدتين لم اقم بصياغتهمـــا حتى الان :

١ ــ ما العملية النفسية التي انقلب بها المضمون الكامـــن للحلم الى ذلك المضمون الظاهر الذي القاه في ذاكرتي عنـــد استيقاظي ؟

٢ ــ ما الاسباب التي جعلت من هذا الانقلاب ضروريا ؟

انني سأطلق على عمليَة تحول الحلم الكامن الى حلم ظاهر اسم عمل الحلم . وسأطلق على العمل المناقض له ، العمل الذي ينتج عنه تحول بالاتجاه المعاكس ، اسم عمل التحليل . اما باقي المشكلات ، المتعلقة بطبيعة التحريض على الحلم ، وبأصل مادة الحلم ، وبمعناه المحتمل ، وبوظيفته ، وبالحوافز التي تجعـــل نسيانه امرا بالغ اليسر ، فلن أوليها اهتمامي الا فيما بعد ، حين سأنتقل من مسألة الحلم الظاهر الى مسألة مضمونه الكامن .

وسأبذل كل جهد ممكن اثناء ذلك لتحاشي الخلط بين الحلم الظاهر وبين افكار الحلم الكامنة ، اذ كثيرا ما تبدى لي اننا اذا كنا نلاقي في الادب الكثير من المعطيات الكاذبة والمتناقضة عـــن الحياة الحلمية ، فالسبب في ذلك انما يعود الى ان الكتّـــاب يجهلون في غالب الاحيان ان الحلم ينطوي على افكار كامنة وان من الضروري اولا تحرير هذه الافكار وتسليط الضوء عليها عن طريق التحليل .

- ٣ -

ان تحول افكار الحلم الكامنة الى مضمونه الظاهر يستأهل ان يستأثر بانتباهنا كله ، لانه المثال الاول المعروف على الطريقة التي تنتقل بها مادة نفسية من شكل تعبيري الى شكل آخر لا نتوصل الى فهمه الا عن طريق مجهود منهجي .

ونظرا الى العلاقات القائمة بين مضمون الحلم الكامن ومضمونه الظاهر ، يمكن تقسيم الاحلام الى ثلاث فئات .

في الفئة الاولى نضع الاحلام الواضحة المعقولة التي تبدو مستعارة بصورة مباشرة من حياتنا النفسية الواعية . وهذه الاحلام متواترة الحدوث . وهي مقتضبة ، لا تكاد تستأهل اهتمامنا ، لانه ليس فيها ما يدهش وليس فيها ما يثير الخيال. ووجود مثل هذه الاحلام هو خير حجة ضد النظرية التي تريد ان يكون الحلم نتاجا لنشاط منعزل لبعض مجموعات من الخلايا . فهذه الاحلام لا تشهد بحال من الاحوال على نشاط نفسي مختزل او مجتزأ ، ومع ذلك لا نتردد في الاقرار لها بسمات الحلم، ولا نخلط بينها البتة وبين منتجات حالة اليقظة.

وفي الفئة الثانية نضع مجموعة الاحلام المعقولة التي لا يكف معناها ، بالرغم من وضوحه التام ، عن ادهاشنا ، لان ما من شيء فينا يبرر نظير تلك الاهتمامات . من قبيل ذلك على سبيل المثال حين نحلم بأن قريبا عزيزا علينا قضى نحبه بسبب الطاعون ، مع انه ليس عندنا اي دافع لنخشى وقوع حادث كهذا او لنعتقد بامكان حدوثه . وهكذا نتساءل بدهشة : «من اين أمكن لهذه الفكرة ان تجيئني ؟» .

ونضع في الفئة الثالثة اخيرا الاحلام التي تفتقر الى المعنى والوضوح معا ، الاحلام المتفككة ، الغامضة ، العبثية . وذلك هو بالاصل الشكل الذي تتجلى فيه في غالب الاحيان ، ولهذا يرفض الاطباء ، الذين لا يعزون الى الاحلام غير اهمية ضئيلة ، ان يروا فيها سوى نتاج نشاط نفسي مختزل . ولنقل ، فضلا عن ذلك ، انه من النادر بوجه عام الا تتضمن الاحلام الطويلة بعض الشيء والمتماسكة منطقيا ولو اثرا خفيفا من التفكك وعدم الترابط .

نستطيع ان نخلص مما سبق الى ان التعارض بين مضمون الحلم الكامن ومضمونه الظاهر لا يمثل من اهمية الا بالنسبة الى احلام الفئة الثانية ، ثم على وجه الخصوص ، الفئة الثالثة . ففي احلام الفئة الاخيرة نصادف الالغاز التي لا سبيل الى حلها الا اذا جرى استبدال المضمون الظاهر بالمضمون الكامن . والتحليل الذي عرضناه آنفا هو تحليل لحلم من تلك الفئة ، حلم غامض بقدر ما هو غير قابل للفهم . لكننا اصطدمنا ، على غير ما كنا نتوقع ، بموجبات تكتم حالت بيننا وبين تعميق تحليلنا ، ويخيل الينا ، بعد بضع تجارب من النوع نفسه ، أن من حقنا ان نتكهن بما يلي :

ثمة علاقة خفية وضرورية بين الطابع المبهم واللامفهوم للحلم وبين المقاومة التي تواجه كل محاولة لجلاء فكرته الكامنة .

سوف نسعى الى معرفة طبيعة هذه العلاقة ، لكن من المرغوب فيه قبل ذلك ان نحوّل انتباهنا نحو احلام الفئة الاولى الاكثر بساطة ، الاحلام التي يتداخل فيها المضمون الظاهر والمضمون الكامن على نحو يبدو معه عمل الحلم معدوما .

ان دراسة هذه الاحلام ضرورية ايضا من وجهة نظر اخرى. فهي تمثل النموذج الذي تتكون وفقا له احلام الاطفال ، وهي احلام متماسكة مترابطة ، وواضحة كل الوضوح على الدوام . وهذا ، بالمناسبة ، حافز آخر يبعث على الامتناع عن ارجاع الحلم الى نشاط جزئي للدماغ اثناء النوم ، اذ ما الموجب لقصر اختزال الوظائف النفسية على نوم الراشد دون نوم الطفل ؟ مهما يكن من امر ، فان دراسة العمليات النفسية لدى الطفل ، وهي عمليات في منتهى البساطة ، تبدو لنا تمهيدا ضروريا لدراسة سيكولوجيا الفرد .

سأضرب هنا كأمثلة بعض احلام طفولية امكن لي ان اجمعها.

فرضت الحمية على فتاة صغيرة في شهرها التاسع عشر طوال يوم كامل بعد ان تقيأت في الصباح وكان التوت البري (الفريز) هو الذي تسبب في القيء على حد زعم الخادمة . وفي الليلة التالية لذلك اليوم من الصيام لفظت الفتاة اثناء منامها اسمها ، ثم اضافت قولها : «فريز ... تارتة ... مغلي» . الطفلة تحلم ، اذن ، بأنها تأكل ، وترى في وجبة طعامها نفس الاشياء التي تتوقع ان تُحرم منها . كذلك رأى طفل في الشهر الثاني والعشرين من العمر ، في منامه ، لذة محرمة : فقد كان كلف البارحة بأن يقدم الى عمه سلة صغيرة من الكرز ولم يؤذن له بأن يأكل منها سوى كرزة واحدة . وحين استيقظ في الصباح قال مبتهجا : «لقد اكل هرمان الكرز كله» . وثمة فتاة صغيرة لها من العمر ثلاث سنوات وثلاثة اشهر قامت بنزهة في مركب ، ولكن النزهة كانت أقصر مما تشتهي لانها طفقت تبكي لحظة النزول . وفي اليوم التالي روت انها هامت فوق البحيرة

طوال الليل ؛ لقد تابعت اذن في الحلم النزهة المقطوعة . كما ظهر على طفل له من العمر خمس سنوات وثلاثة اشهر كـدر المزاج اثناء جولة في منطقة الداشتاين . وكان يسأل عند الوصول الى كل قمة جديدة : اهو الداشتاين ، وفي نهاية الامر ابى ان يرافق الآخرين لرؤية الشلال . وقد وجد موقفه هذا ، الذي عزي الى التعب ، تفسيره في اليوم التالي ؛ فقد صرح عند يقظته بانه حلم انه يتسلق الداشتاين . وآية ذلك انه كان داخله الاعتقاد بأن هدف النزهة ارتقاء الداشتاين ، ثم شعر بخيبة امل حين لم يشاهد الجبل . وغب ذلك ، عوضه الحلم عن خيبة النهار . وهذا المثال نفسه يتكرر لدى فتاة صغيرة لها من العمر ست سنوات : فقد كانت تتنزه مع والدها ، لكن تأخر الساعة ارغمها على العودة من دون ان تكون بلغت الهدف. فقد كانت تتمنى الوصول الى عمود يحمل لافتة عليها اسم مكان آخر للتنزه ، ووعدها ابوها بانه سيأخذها اليه في مرة قادمة. وفي صبيحة اليوم التالي ، قصت على والدها انها حلمت بانه قام معها بالنزهة الاولى ، وبعدها بالثانية .

ليس من العسير علينا ان نتبين ان جميع احلام الاطفال هذه متشابهة في نقطة معينة . فهي جميعها تحقق الرغائب التي ولّدها فيهم النهار ولم يشبعها . انها اذن ، بصراحة ووضوح وبلا لف او دوران ، رغائب متحققة .

وإليكم ايضا حلم طفل قد لا يفهم للوهلة الاولى ، ولكنه يحقق هو الآخر رغبة ، لا اكثر ولا اقل . فتاة صغيرة في حوالي الرابعة اقتيدت من الريف الى المدينة لاصابتها بشلل الاطفال . وقد قضت الليل لدى عمة لا اطفال لها ، في سرير لا يناسب حجمه قامتها . وفي صبيحة اليوم التالي قالت انها حلمت بأن السرير صغر كثيرا بحيث لم يعد لها متسع فيه . ان لغز هذا الحلم ، من حيث انه تحقيق لرغبة ، سهل الفك والتوضيح .

فمن يجهل ان الاطفال لا يرغبون في شيء رغبتهم في ان يصيروا كبارا ! وقد ذكر طول السرير الفتاة الصغيرة بوهن مكانتها ، فاسرعت تتدارك في الحلم هذا الموقف المذل ، فصارت كبيرة الغاية حتى ما عاد السرير على كبره يسعها .

وحتى عندما يتعقد الحلم الطفلي وينزع الى الرهافة ، يظل في الميسور ارجاعه على الدوام الى اشباع رغبة . حلم صبي صغير في الثامنة من العمر بأنه يقف بجانب آخيل في المركبة التي يقودها ديوميدس . وكان في البارحة قد استغرق في قراءة اساطير اليونان البطولية . فلا غرو بعد تحمسه لذينك البطلين ان يكون قد أسف على انه لم يعش في زمانهما .

تكشف لنا هذه الامثلة المتنوعة عن سمة ثانية للحلم الطفلي : فهو ذو صلة مباشرة بالحياة اليومية . فالأماني التي يتحقق فيه ، يكون الطفل قد كوّنها اثناء النهار ، وفي غالب الاحيان عشية ، بتوق عظيم . وهو ، من جهة اخرى ، لا يحلم ابدا بأشياء تبدو عديمة الدلالة او غير مثيرة للاهتمام بالنسبة الى عقل طفل .

ولدى الراشد ايضا نلاقي الكثير من الامثلة على هذه الاحلام من النمط الطفلي ، لكنها مقتضبة جدا ، على الدوام تقريبا ، كما ذكرنا آنفا . هكذا نرى الكثيرين من الناس يحلمون بانهم يشربون اذا ما ظمئوا اثناء النوم ؛ وبعد تنحية الرغبة آنيا على هذا النحو يجدون سبيلا الى متابعة النوم . هذه الاحلام ، التي نستطيع ان نسميها أحلام ترفيه اذا شئنا ، ليست نادرة ، وغالبا ما تحدث قبيل اليقظة ، حين يحدس النائم بأنه لم يعد هناك بد من الاستيقاظ ، فيطفق يحلم بأنه واقف على قدميه ، منصرف الى غسيل وجهه وتسريح شعره ، او حتى منهمك في المدرسة او في المكتب ، اي في المكان الذي يتوجب عليه الذهاب اليه . وغالبا ما يحلم المرء ، في الليلة السابقة للسفر ، بأنه وصل الى المكان الذي يقصده . كذلك يحدث ، قبل حضور

عرض مسرحي او اجتماع اصدقاء ، ان يستبق الحلم ، من قبيل ما يشبه نفاد الصبر ، المسرة الموعودة .

وقد يعبر الحلم عن تحقيق الرغبة تعبيرا غير مباشر احيانا. ومن الضروري في هذه الحال ان نضيف الى السلسلة الحلقة المفقودة منها ، اذا اردنا الوصول الى فكر النائم الحقيقي . وتلكم هي الخطوة الاولى على طريق تأويل الحلم . روى لي زوج ، على سبيل المثال ، حلم زوجته الشابة . فقد حلمت هذه الاخيرة بأن الطمث جاءها . والحال ان انقطاع الطمث هو من علائم الحمل . وهاتان الفكرتان لا يمكن الا ان نتطابقا في ذهن الزوجة الشابة، ومضمون حلمها ، من حيث انه تحقيق لرغبة ، يبين لي بوضوح انها تتمنى ان يتأخر الحمل لفترة اخرى ايضا .

وفي حالات خاصة من الضرورة القصوى ، تغدو احلام النمط الطفلي متواترة الى حد يبعث على الاستغراب . فقد روى رئيس بعثة قطبية ان رجاله ، المقضي عليهم اثناء التشتية في الجليد بوجبات محدودة ومحددة من الطعام لا تتنوع ابدا ، كانوا يحلمون في كل ليلة ، كالاطفال ، بوجبات فاخرة وافرة ، وبكدسات من التبغ ، وبمباهج الحياة .

وليس من النادر ان ينفصل عن خلفية حلم غامض ، طويل ومبهم ،موضوع أوضح نتعرف فيه للحال تحقيق رغبة . لكن هذا الموضوع يكون ملتحما بمواد غير مفهومة . وحين يقضي المرء فترة طويلة في تحليل أحلام الراشدين ، يتبين بشيء من الدهشة انه حتى الاحلام التي تبدو سطحية للغاية ليست بسيطة البتة بساطة احلام الاطفال ، وان ثمة معنى خفيا يكمن وراء صورة اللذة المتحققة .

ان لغز الحلم سيجد حله بلا ريب على ابسط نحو وبصورة مرضية ومقنعة الى أبعد الحدود لو اتاح لنا التحليل ان نرجع أحلام الراشدين الغامضة واللامفهومة الى النمط الطفلي ، اي

او راينا فيها تحقيقا لرغبة راودت الراشد بلجاجة في النهار . لكن هذا التوقع ليس له ما يبرره البتة . فأحلام الراشدين مكتظة على الدوام تقريبا بمواد عبثية ومختلطة ومتنافرة ، وهذه المواد لا تنطوي على اثر من رغبة محققة .

ولنلفت الانتباه ، قبل ان ندع وشأنها هذه الاحلام الطفلية التي هي بكل جلاء تحقيق لرغبات ، الى خاصة اخرى لوحظت في الحلم منذ زمن طويل ، ويمكن التحقق منها على احسن وجه في احلام الفئة الاولى . فكل حلم من الاحلام التي درسناها يمكن صوغه بصيغة التمني : «آه لو دامت النزهة على الماء فترة اطول ! ـ ليتني نهضت ولبست ثيابي قبل الان ! ـ ليتني اكلت الكرز كله بدل ان أقدمه لعمي !» . لكن الحلم لا يقف عند صيغة التمني هذه ، بل يتجاوزها ايضا الى تحقيق الرغبة ، ويقدم لنا هذا التحقيق في شكل واقعي وراهن . وغالبا ما تتمثل المواد التي يستخدمها الحلم لتصوير تحقيق الرغبة في مواقف وصور حواسية ، بصرية على الدوام تقريبا . اذن ، حتى في هذه الفئة من الاحلام يحدث ضرب من تبديل مكاني نستطيع ان نسميه عمل الحلم : **اذ تحل صورة راهنة محل فكرة كان وجودها لا يتعدى صيغة التمني .**

- ٤ -

وجدنا آنفا ما يحملنا على الاعتقاد بأن بعض الصور التـــي نصادفها في اكثر احلامنا تفككا وعدم ارتباط هي بدورها نتيجة ابدال مكاني . صحيح اننا نجهل هل كان موضوع هذا الابدال رغبة ما ، ولكن مثال الحلم الآنف الذكر الذي أوغلنا في تحليله بما فيه الكفاية يبدو ، في جانبين على الاقل من جوانبه ، وكأنه يؤكد ذلك الافتراض . انتم تذكرون ان زوجتي ، في تحليل ذلك الحلم ، كانت مهتمة على مائدة الضيافة بأشخاص غرباء اكثر من اهتمامها بي بكثير ، وانني اغتظت من ذلك . وفي الحلم كـــان عكس ذلك : فالمراة التي تمثل زوجتي كانت ملتفتة نحــــوي بكليتها . والحال انه اذا كان هناك رغبة يمكن ان تتولد عن حادث يحز في النفس ، فهي الرغبة في حدوث الحادث المعاكس ... وبالتحديد حادث الحلم . وذلك الشعور الذي اكتشفته عنـــد التحليل ، الضغينة بسبب الحب المجاني المضنون به عليّ ، الا يجد معادله في كلمات الحلم : «كان لك على الدوام عينان فـــي غاية الجمال !» . وهكذا يكون في الامكان ارجاع قسم مـــن

التعارضات بين مضمون الحلم الظاهر ومضمونه الكامن الى رغائب متحققة .

ان لعمل الحلم تأثيرا يبعث على دهشة اكبر ايضا ، وإليه ترجع ، بلا ادنى شك ، أحلامنا الاكثر تفككا وعدم ارتباط . لنأخذ حلما من الاحلام ، ولنحصِ عدد صوره ، اما بصورة مباشرة وإما عن طريق تسجيلها كتابة ، ولنجر بعد ذلك الحساب نفسه على الافكار الكامنة التي يقدمها التحليل والتي احتفظ الحلم بأثر منها ؛ اذا فعلنا ذلك يتبين لنا ان عمل الحلم قام بضغط ، بتكثيف غريب . ومن الصعب ان نكوّن صورة مسبقة عن اهمية هذا التكثيف ، ولكنه لن يثيرِ الا المزيد من دهشتنا طرداً مع تقدمنا في تحليل الحلم . فمع تقدمنا ، لن نصادف عنصرا واحدا من عناصر مضمونه لا تذهب خيوطه في اتجاهين او ثلاثة اتجاهات ، كما لن نصادف اي موقف غير مستمدة عناصره من تذكرين او عدة تذكرات من الحياة الواقعية . لقد حدث لي على سبيل المثال ان رايت في الحلم ما يشبه حوض سباحة كان يبدو على المستحمين فيه وكأنهم يلوذون بالفرار من كل جانب . وفي واحد من المواضع ، انحنى واحد من الاشخاص فوق حافة الحوض نحو شخص آخر منهمك في الاستحمام لينتشله خارج الماء . نحن نلاقي هنا تركيبة من ذكرى من عهد بلوغي ومن لوحتين احداهما «مباغتة الاستحمام» من مجموعة لوحات شفيند عن ميلوزينا (مستحمون لائذون بالفرار من كل جانب) ، والاخرى هي «الطوفان» من المدرسة الايطالية. وكنت قد رايت واحدة من تلك اللوحات قبل ايام قلائل . اما الحادث البسيط فمرده الى تذكر من مدرسة السباحة والى مشهد المعلم وهو يساعد على الخروج امراة تأخرت الى ميقات الرجال . وثمة في الحلم ، الذي اخترته مثالا لعمل التحليل ، موقف يبين لنا التحليل ارتباطه بذكريات مختلفة ؛ والحال ان

كل واحدة من هذه الذكريات اسهمت بقسطها في مضمون الحلم . فهناك قبل كل شيء الحادث الصغير الذي يعود الى عهد خطوبتي : ملامسة اليد تحت الطاولة التي تحدثت عنها آنفا والتي زودت الحلم بتفصيل «تحت الطاولة» الممكن عزوه الى الذاكرة . اما المراة «المستديرة نحوي» فلم يكن لها وجود آنئذ ؛ والتحليل ينبئني بأن هذا التفصيل تحقيق للرغبة عن طريق العكس وبانه يعود الى موقف زوجتي على مائدة المضيف. وخلف هذه الذكرى الحديثة العهد يختبىء مشهد مشابه ، لكنه اعظم مأساوية بكثير ، يعود الى عهد خطوبتنا ، وقد تسبب في تخاصمنا طوال يوم كامل . اما حركة اليد الاليفة التي لامست ركبتي فانها تستدعي الى الذاكرة اشخاصا آخرين وتداعيات افكار اخرى ؛ اذ تغدو بدورها نقطة انطلاق لسلسلتين من الذكريات مختلفتين كل الاختلاف ؛ وهكذا دواليك .

من الضروري بالطبع ان تكون التفاصيل ، المقتبسة عن الافكار الكامنة ، والمحدثة باجتماعها موقفا حلميا ، من الضروري ان تكون صالحة قبليا للاستعمال . والشرط الاول لذلك هو وجود عنصر مشترك ، بل عدة عناصر مشتركة ، في جميع تلك المركبات . عندئذ يلجأ عمل الحلم الى نفس الطريقة التي لجأ اليها فرنسيس غالتون في صوره الفوتوغرافية العائلية ؛ فهو سيركّب بين العناصر على نحو تبرز معه بجلاء تام النقطه المركزية المشتركة بين جميع الصور المتناضد بعضها فوق بعض، بينما ستؤول العناصر المتناقضة ، المنعزلة ، الى التلاشي والاضمحلال بقدر او بآخر . وطريقة التركيب هذه تفسر جزئيا الطابع الغامض والغائم لتفاصيل الحلم الثانوية .

لقد استفدت من الملاحظات الآنفة لتكون اساسا أقيم عليه واحدة من قواعد تأويل الحلم : فحين نجد انفسنا اثناء تحليل افكار الحلم امام خيار بين امرين ، علينا ان ندرك ان هذا الخيار ما هو الا اثبات مقنّع ، وأن نستبدل الـ «او» بـ «و» ، وأن

نتخذ من كلا حدي الإحراج الكاذب نقطة انطلاق لسلســـلات جديدة من التداعيات .

وحتى اذا لم يكن بين الافكار الكامنة نقطـــــة مشتركة ، يتوصل العمل الحلمي ، الرامي على الدوام الى تشكيل صورة واحدة ، الى الدمج بين تلك الافكار وصهرها في فكرة واحدة . والحيلة التي يستخدمها ليجمع على هذا النحو بين فكرتين ليس بينهما شيء مشترك تكمن في تغيير التعبير الشفهي لواحـــدة منهما ، بل لكلتيهما معا في احيان كثيرة . ومثل هذا العمل يرتد في خاتمة المطاف الى صب صورتين متنافرتين في قالب واحد لشكل لغوي واحد . وفي مقدورنا ، اذا شئنا ، ان نشبه هذه الوظيفة بوظيفة جامع القوافي الذي يلقى في توافق الاصوات الوحدة المنشودة .

يكمن الشطر الاكبر من عمل الحلم في خلـــق تحولات وانتقالات في غاية الدهاء احيانا ، لكن تبدو لنا مع ذلك في كثير من الاحيان متصنعة . وهـــي تفيـــد فـــي الوصل والربط بيـــن مضمون الحلم وبين الفكرة الكامنة نفسها ، المختلفة في شكلها وفي مادتها ، المصاغة من قبل الظروف التي استدعت الحلم .

وبمتابعة تحليل حلمنا النموذجي التقي بفكرة جرى تشويهها بغرض مطابقتها مع فكرة اخرى غريبة كل الغرابة عن الاولى . فبين الافكار التي افضى اليها التحليل الفكرة التالية : الـــن اتمتع اذن ابدا ، كما يتمتع الآخرون ، بهبة مجانية ؟ بيد ان هذه الصيغة غير صالحة للاستعمال بالنسبة الى مضمـــون الحلم ، وعليه يتم استبدالها بالصيغة التالية : الن اتمتع ابدا بشيء لن يتوجب عليّ ان ادفع تكاليفه ؟ وسوف تتخذ كلمـــة «تكاليف» معنى جديدا كي تدخل في حلقة الافكار المرتبطة بمائدة المضيف، وسوف يمثلها فيها السبانخ المقدم على المائدة . وبالفعل ، حين يرفض الاطفال عندنا ان يمسوا طعاما مقدما اليهم ، تسعى امهم

الى اخذهم باللين والنعومة وتقنعهم بأن «يتذوقوا» (١) منـــه قليلا . ومن المثير للاستغراب ان نرى العمل الحلمي يستخدم بلا تردد معنيين لكلمة واحدة ، لكن ستبين لنا التجربة عما قليل ان ذلك كثير ومتواتر .

وفي مقدورنا ايضا ان نفسر ، عن طريق عمـل التكثيف ، بعض الصور الخاصة بالحلم التي تجهلها حالة اليقظة جهلا تاما. هذه الصور تتمثل في الوجوه البشرية المتعددة الشخصيات او المزيجة ، وكذلك في تلك التصاميم الغريبة المتنافرة العناصر التي لا تمكن مقارنتها الا بالاوجه الحيوانية التي أبدعتها مخيلة شعوب الشرق ؛ لكن هذه الاوجه الاخيرة تتبلور مرة واحــدة ونهائية ، بينما يبدو على ابتكارات الحلم وكأنها تستعير أشكالا جديدة على الدوام من خيال لا ينضب له معين .

من منا لم يصادف في احلامه الذاتية صورا من هذا النوع؟ انها تنتج عن اكثر التركيبات تباينا وتنوعا . ففـــي وسعي ان أؤلف وجها أوحد من قسَمات مقتبسة من عدة وجوه ؛ ومــن الممكن ان ارى في الحلم سحنة معروفة واعطيها اسم شخص آخر ، كما انه من الممكن ان أتعرفها تماما وأضعها في الوقت نفسه في موقف يجابهه في الواقع شخص آخر . وفي مختلف هذه الحالات ، نجد ان تكثيف عدة اشخاص في شخص واحد يضفي ضربا من التكافؤ على اولئك الاشخاص جميعا ، واضعا اياهم ، من وجهة نظر خاصة ، في سوية واحدة . ومن الممكن ان يشير مضمون الحلم الى هذا التكافؤ ، لكن اكتشافه لا يتم في احيان كثيرة الا بواسطة التحليل ، ولا شيء يميط اللثام عنه في الحلم ان لم يمطه الوجه المنسوب الى الشخص الجماعي .

---

١ ـ جناس غير قابل للترجمة بين «تذوق» و«تكلفة» بالالمانية . « م » .

ان هذه القاعدة الواحدة وهذه الطرق المتعددة في التركيب تنطبق ايضا على جميع الصور المتنافرة العناصر التي يربل بها الحلم والتي لا داعي لضرب امثلة عليها . وهذه الصور تبدو لنا اقل غرابة بمجرد عزوفنا عن مماثلتها بمواضيع ادراكنا في حالة اليقظة ، لنتذكر انها ناجمة عن عمل الحلم التكثيفي وأن الغرض منها ابراز الطابع المشترك بين مختلف مواضيع التركيب ، وذلك على نحو مقتضب واخاذ . والتحليل هو الذي سيتيح لنا ان نكتشف ذلك الطابع العام ، لان كل ما نستطيع ان نستخلصه ، في معظم الاحيان ، من مضمون الحلم هو ان هناك مجهولا، قيمة (س) مشتركة بين جميع تلك الصور الملفقة المتنافرة . والتحليل، بتفكيكه أوصال هذه الصور ، سيقودنا مباشرة الى تأويل الحلم .

لنأخذ مثالا . حلمت بأنني جالس على مقعد بصحبة واحد من قدامى اساتذتي في الجامعة ، وان ذلك المقعد كان مقذوفا به الى الامام بحركة سريعة، مثله مثل العديد من المقاعد الاخرى. انني أعتقد ان في مقدوري ، اذا ما ضربت صفحا عن تداعيات الافكار التي قادتني الى الخلوص الى ما خلصت عليه ، ان أؤكد ان في ذلك الحلم تركيبا بين قاعة الدروس والرصيف الآلي المتحرك . وفي حلم آخر ارى نفسي جالسا على مقعد في مقصورة في قطار حديدي ، واضعا قبعتي على ركبتي . قبعة سهرة من البلور الشفاف . وقد حملتني هذه الصورة بادىء الامر على التفكير بالمثل القائل : «اخفض قبعتك (١) فتحصل على كل ما تريد في هذه الدنيا» . اما الاسطوانة الزجاجية فقد وجهت فكري ، من دون لف او دوران كثير ، نحو مصباح

---

١ ــ مجاز يقابله بالعربية قولنا : أرق ماء وجهك . « م » .

آور (٢) ، ومن ثم الى ابن جلدتي الدكتور آور فون ولشباخ . وقلت بيني وبين نفسي انه لن يحنقني أن أخترع مثله اختراعا يجعلني غنيا ومستقلا ... وفي هذه الحال سأطوف عبر العالم بدل البقاء في فيينا . وفي الحلم ، سافرت مع اختراعي ، تلك القبعة الزجاجية ، التي ما يزال نفعها موضع نقاش .

كذلك لا يندر ان يروق للعمل الحلمي ان يؤلف صورة مزيجة ملفقة من فكرتين متناقضتين ، وعلى سبيل المثال ، حلم تلك المراة الصبية التي رأت نفسها تحمل غصنا مزهرا هو نفس الغصن الذي يحمله الملاك في لوحات البشارة (رمز البراءة : فتلك المرأة تدعى مريم) . بيد ان الغصن كان يحمل زهورا بيضا وثقيلة شبيهة بزهور الكاميليا (نقيض البراءة : غادة الكاميليا) .

ان شطرا كبيرا من اكتشافاتنا بصدد عمل التكثيف في الحلم يمكن تلخيصه على النحو الآتي :

ان مادة الحلم الكامنة هي التي تحدد المضمون الظاهر حتى في أدق تفاصيله تقريبا ، وكل تفصيل من هذه التفاصيل لا يشتق من فكرة منعزلة ، وانما من عدة افكار مقتبسة من تلك المادة الاساسية وغير مترابطة فيما بينها بالضرورة . بل من الممكن ان تكون منتمية الى أشد ميادين الافكار الكامنة اختلافا . ان كل تفصيل من تفاصيل الحلم هو ، بكل معنى الكلمة ، تمثيل في مضمون الحلم لزمرة من زمر الافكار المتنافرة تلك .

لكن التحليل يكشف لنا ايضا عن خاصية اخرى لتلك المبادلات المعقدة بين مضمون الحلم والافكار الكامنة . فالى جانب تلك الخيوط المتضاربة المنطلقة من كل تفصيل من تفاصيل

---

٢ – آور فون ولشباخ : كيميائي فييناوي اخترع المصباح المتوهج المعروف باسمه (١٨٥٨ – ١٩٢٩) . «م»

KMH

الحلم ، هناك خيوط اخرى تنطلق من الافكار الكامنة وتتجه متباعدة نحو مضمون الحلم بحيث يمكن لعدة تفاصيل ان تمثل فكرة كامنة واحدة ، وبحيث تتشكل بين مضمون الحلم الظاهر ومضمونه الكامن شبكة معقدة من الخيوط المتصالبة .

ان التكثيف يبدو لنا عنصرا مهما ومميزا للعمل الحلمي ، مثله مثل تحويل الفكرة الى موقف (« الاخراج الدرامي») ، لكن ما الدافع الذي يجعل من هذا الضغط او التكثيف ضروريا ؟ لقد تعذر علينا حتى الان ان نكتشفه .

- ٥ -

ان ما نلحظه في الاحلام المعقدة والمشوشة التي نهتم بها الان من تنافر بين مضمون الحلم الظاهر ومضمونه الكامن لا يمكن ان يعزى الى ضرورة التكثيف والاخراج الدرامي وحدها . بل ثمة مؤشرات معينة ـ في الاشارة اليها فائدة ـ تشهد على وجود عامل ثالث .

لنلاحظ اولا اننا حين توصلنا بطريق التحليل الى معرفة الافكار الكامنة، بدت لنا من طبيعة مغايرة تماما لطبيعة مضمون الحلم الظاهر . لكن ذلك لا يعدو ان يكون انطباعا اول سيتبدد غب التمحيص ، لاننا نجد في نهاية المطاف ان كل مضمون الحلم تفسره الافكار الكامنة ، وان معظم الافكار الكامنة ممثلة في المضمون الظاهر . بيد ان ثمة فارقا يظل قائما : فما يعمل الحلم على تطويره وإبرازه في تفاصيله ، وكأنه يرغب في أن يجعل منه جوهر مضمونه ، هو عينه ما سيلعب ، بعد التحليل وفي الافكار الكامنة ، دورا ثانويا تماما ؛ وعلى النقيض من ذلك نجد ان الكناية التي تكاد لا تدرك ، الكناية التي لا تكاد تفارق أعتم

مناطق الحلم واظلمها ، هي التيستتنطع بين سائر الافكـــار الكامنة لاداء الدور الاول . وفي وسعنا وصف هذه السيرورة على النحو التالي :

اثناء قيام الحلم بعمله ، تنتقل الشدة النفسية للافكـــار والتصورات التي هي موضوع عمل الحلم لتتلبس افكـــارا وتصورات اخرى هي بالضبط تلك التي ما كنا نتوقع البتة ان نراها تأخذ مثل تلك الحدة والكثافة .

ان انتقال النبرة النفسية هذا هو الذي يسهم بأوفر قسط في تعتيم معنى الحلم وفي الحيلولة دون تعــرف العلاقات بين الحلم الظاهر والحلم الكامن .

اثناء تلك العملية ، التي اسميها بالنقل في الحلم ، ارى ايضا الشدة النفسية او الوجدانية للفكرة الكامنة تتحول الـــى بلبلة مادية ؛ وفي الوقت الذي اجد فيه نفسي مدفوعا بأكثر من اغراء الى ان أعتبر ان الاكثر وضوحا وجلاء هو الاساســي والجوهري ، اتبين انه ينبغي البحث على العكس في تفصيــل غامض مبهم عن بديل فكرة الحلم الاساسية .

ان ما اسميه بنقل الحلم استطيع ان اسميـــه ايضا بقلب القيم . والظاهرة تستأهل ان نتوقف عندها . سأضيف القول ، اذن ، انني صادفت في التحاليل التي اجريتها لاحلام متباينة جميع درجات النقل والقلب . فهناك احلام لا يكاد يحدث فيها نقل او قلب ، وهي الاحلام المعقولة والمفهومة كتلك التي اتيت بذكرها في البداية والتي لا تعدو ان تكون رغبات معبرا عنهـا تعبيرا سافرا . وفي أحلام اخرى لا نجد ، على العكس ، عنصرا واحدا احتفظ بقيمته الحقيقية ؛ فكل ما كان جوهريا وأساسيا في الافكار الكامنة نجده ممثلا بتفاصيل ثانوية ، ونكتشف بين هذه التفاصيل وتلك الافكار سلسلة هامة من التداعيات . وكلما كان الحلم اشد إبهاما وغموضا وتشوشا ، توجب علينا ان نقيم

المزيد من الاعتبار ، بغية تاويله ، لعملية الابدال المكاني .

لقد تم النقل ، في الحلم الذي اخضعناه للتحليل ، على نحو تركز معه مضمون الحلم الظاهر في نقطة مغايرة تماما لتلك التي تركز فيها مضمونه الكامن . فأول ما يبرزه لنا الحلم موقف ، موقف المراة التي يبدو عليها انها تريد ان تمهد لوصال بيننا ؛ اما ما يحتل مكانة الصدارة في الافكار الكامنة فهو الامنية التي عبرت عنها في حب متجرد ، حب «لا يكلف شيئا» ؛ وهذه الفكرة تختفي خلف الجملة المتعلقة ب «العينين الجميلتين» وخلف كناية «السبانخ» .

ان تحليل الحلم ، الذي اتاح لنا ان نمسك بالمنظور الاصلي، وضعنا على طريق الحل الافضل لمعضلتين يدور حولهما نقاش حامي الوطيس ، معضلة الحض على الحلم ومعضلة العلاقات بين الحلم وحياة اليقظة . فثمة احلام تنم عن ارتباط مباشر بأحداث اليوم ، وثمة احلام اخرى لا تبدو الاحداث تلعب فيها دورا كبيرا . وعندما نستنجد في هذه الحال بالتحليل ؛ نتبين ان جميع الاحلام بلا استثناء يكمن جذرها في انطباع تم تلفيه في العشية ، او بالاحرى اثناء النهار السابق الحلم . هذا الانطباع، الذي يمكن ان يسمى بالمحرض على الحلم ، يكون احيانا قويا الى درجة لا نعجب معها من كونه شغل اهتمامنا اثناء حالة اليقظة ؛ وفي هذه الحال نقول بصواب ان حلم الليل ان هو الا استمرار لمشاغل النهار . لكن مضمون الحلم لا يسترجع في غالب الاحيان من انطباعات النهار سوى تفصيل صغير وعديم الدلالة الى درجة تقتضي منا ان نقوم بجهد كي نعود الى تذكره ؛ وفي هذه الحال يبدو لنا مضمون الحلم ، وان يكن متماسكا ومفهوما ، مؤلفا من ترهات وسفاسف كثيرة الى درجة ينتفي معها داعي الدهشة اذا ما رأينا الناس ينظرون بعين الازدراء عامة الى جميع التظاهرات التي هي من هذا القبيل .

بيد ان التحليل يأتي ليكذب هذا الحكم بكشفه عما يختفي

وراء الظواهر : فمن الممكن ، في وهلة اولـــى ، ان نحسب ان ظرفا تافها غير ذي شأن ، لكنه يحتل مكانة الصدارة ، هـــو الحافز الذي حض على الحلم . بيد اننا سرعان ما سنكتشف ، بواسطة التحليل ، السبب الحقيقي للحلم ، اي الظرف الذي كان على درجة كافية من الاهمية لاستثارته والذي حل محلـه الظرف الآخر لان بينهما العديد مـــن نقاط التماس . وحين يتبدى مضمون الحلم في شكل مجرد من المعنى والفائدة ، يميط التحليل اللثام عن الدروب الجانبية التي تسلكها هذه العناصر العديمة القيمة لتنضم الى عناصر اخرى لها اهميتها القصوى بالنسبة الى سيكولوجيا الفرد الذي يحلم . وانما الى عمل النقل ترجع علة ما يحدث في مضمون الحلم من ابدال للواقعة المثيرة للانفعال بالحادث التافه ، وللمواد المثيرة للاهتمام بالمواد التي لا اهمية لها . واستنادا الى هذا المكتسب الجديد نستطيع ، على ما يخيل اليّ ، ان نخطو الخطوة الاولى نحو حـــل المعضلـة المزدوجة ، معضلة الحض على الحلم ومعضلة العلاقات بين الحلم والحياة اليومية ، وان نقول :

ان الاشياء التي لا تثير الاهتمام اثناء النهار لا تصبح مثيرة للاهتمام بالنسبة الى الحلم ، وان الترهات التي لا تؤثر فينا في حالة اليقظة يستحيل ان تلاحقنا اثناء رقادنا .

ولنعد الى المثال الذي اقترحناه موضوعا للتحليل ولنتساءل: ماذا يمكن ان يكون المحرّض على الحلم ؟ انه يتمثل في واقعـة غير ذات شأن ، حين عرض على صديق من الاصدقاء القيـــام بجولة مجانية في العربة . والموقف الحلمي ، اي مائدة المضيف، كناية عن تلك الواقعة غير ذات الشأن ، على اعتبار انني اقمت توازيا ، اثناء حديثي مع الصديق المذكور ، بين العداد ومائـدة المضيف . اما الواقعة الاساسية التي تختبىء هنا فتتمثل في انني انفقت ، قبل ايام قليلة ، مبلغا كبيرا من المال على شخص

من افراد عائلتي يعز عليّ . وفي عداد الافكار الكامنة اجـــد افتراضي بأن ذلك الشخص المدين لي بالفضل سيعرب لي عن عرفانه بالجميل ، ولكن من دون ان تكون مشاعره نحوي منزهة عن الغرض . والحب المتجرد هو الذي يحتل مكانة الصدارة في مضمون الحلم الكامن . وكنت قد صحبت ذلك الشخص فـي مناسبات عدة في العربة ، وهكذا تكون الجولة التي قمت بها عشية مع احد الاصدقاء قد اعادت الى ذاكرتي الجولات التي قمت بها في وقت سابق . والحادث التافه ، الذي تحول الى محرض على الحلم بفعل عملية ربط ووصل مـن ذلك النوع ، يخضع لشرط منعدم الوجود بالنسبة الى منبع الحلم الحقيقي: اذ لا بد بالحتم والضرورة ان يكون قد حدث عشية الحلم .

ولن أدع جانبا فكرة النقل في الحلم هذه من دون ان أشير الى مثال يتضافر فيه التكثيف والابدال المكاني لانتاج صـورة حلمية . لقد سبق ان عرضنا الحالة التي تندمج فيها فكرتان حلميتان لهما نقطة تماس واحدة لتدخلا على مضمون الحلـم الظاهر صورة مزيجة ، صورة ستتطابق نقطتها المركزية القابلة للفهم مع التفصيل المشترك ، بينما لن يكون هناك من تمثيل في الحلم للتفاصيل الخاصة بكل واحدة من الفكرتين الا بواسطـة لواحق مبهمة . واذا انضاف الى عمل التكثيف هذا عمل نقل ، فلن يعود ينجم عن ذلك صورة مزيجة ، وانما صورة وسطى لا استطيع ان اشبهها ، بدالة الفكرتين البدائيتين ، الا بمحصلة متوازي اضلاع القوى بدالة مُركباته .

كان موضوع واحد من احلامي ، على سبيل المثال ، الحقن بالبروبيلين . وعند التحليل لم اجد في البداية من محرض على الحلم سوى ظرف تافه يلعب فيه الاميلين دورا ما . ولكن ذلك لا يفسر كيف تحول الاميلين الى بروبيلين . بيد ان ذكـــرى زيارتي الاولى لميونيخ تنتمي الى حلقات افكار ذلك الحلم عينه ،

وهي الزيارة التي شدهت فيها بمنظر البروبيليا (١) وتبيح لنا ظروف التحليل الاخرى ان نقبل بأن تأثير هذه الحلقة الثانية على الاولى هو الذي ادى الى تحول الاميلين الى بروبيلين . وبذلك يكون البروبيلين ، اذا جاز التعبير ، تمثيــــلا اوسط للأميلين والبروبيليا ؛ وعبر ضرب من التسوية شق طريقه الى الحلــم بسبب الفعل المتواقت للتكثيف والنقل .

وأول ما يتطلب هنا حلا ، على ما يخيل الينا ، هو لغز عمل النقل ، او بالاحرى الدوافع التي تجعل هذا العمل ضروريا .

---

١ ـ الأميلين اسم فحوم من المجموعة الاتيلينية . والبروبيليا اسم مدخل المعابد او بوابتها عند الاغريق . «م»

- ٦ -

في وسعنا ، لو أنعمنا النظر ، ان نكتشف في عمل الحلم ظاهرة اخرى اقل فاعلية من ظاهرة النقل ، لكنها تسهم بقسطها هي الاخرى في تحويل الافكار الكامنة بحيث يتعـــذر تعرفها . فحين يقودنا التحليل الى التحقق من هوية بعض هذه الافكار ، يندر ألا نباغت بادىء الامر بتنكرها الغريب . فهي لا تمثل لنا في الشكل اللفظي ، البسيط الى ابعد الحدود ، الذي اعتدنا ان نلبسه أفكارنا ، بل تجد في غالب الاحيان وسيلة تعبير رمزية ، وسيلة الشاعر الذي يملأ قصائده بالتشابيه والاستعارات . ولا يشق علينا ، على كل حال ، ان نفهم الدافع الى مثل هــــذا الاستخدام ؛ فنظراً الى ان مضمون الحلم الظاهر لا يتألف الا من مواقف عينية ، فلا مفر من ان تتعرض الافكار الكامنة حتى تأخذ مكانها فيه لعملية تنكير تجعلها قابلة للاستعمال في التمثيل . ولو ذهب بنا الفكر الى عبارات مقال صحفي او جمل مرافعة في محكمة التمييز ، ولو تخيلنا امكانية استبدالها بسلسلة مـــن الصور البشرية ، لتكونت لدينا فكرة عن التحولات التي ينبغي

على العمل الحلمي ان يخضع لها الافكار الكامنة حتى تصبح قابلة لعرض عيني .

وغالبا ما نعثر في المعين النفسي الذي يغذي هذه الافكار على ذكريات اشياء معاشة ، ذات وقع في النفس ، يعود اصلها الى الطفولة الاولى . وهذه الاشياء تزود الحلم بموقف يتجلى على الدوام في شكل عيني ، وهي تؤلف عنصرا بالغ الاهمية ، لانها تمارس على تكوين الحلم تاثيرا فعالا يكون بمثابة نواة تبلور تصطف وتتجمع حولها بقية المادة . وبذلك يسعنا ان نقول ان جميع المواقف تقريبا التي تعرضها علينا أحلامنا ليست شيئا آخر سوى نسخ ، مزيدة ومعاد فيها النظر على نطاق واسع ، عن بعض من تلك الذكريات المؤثرة في النفس . ومن النادر ، على العكس من ذلك ، ان يقدم لنا الحلم صورة صادقة وطبق الاصل عن مشهد من مشاهد حياة اليقظة .

بيد ان مضمون الحلم الظاهر ينطوي ايضا على شيء آخر غير المواقف . اذ تنضاف اليها فيه صور بصرية مجراة ومفككة وغير متلاحمة ، وشذرات من احاديث ، وأحيانا جزء من جملة مبتسرة . ولا شك في ان الامر لن يخلو من فائدة لو استعرضنا بسرعة جميع هذه الوسائل التعبيرية التي هي الوسائل المستخدمة من قبل العمل الحلمي لارجاع مجموعةالافكار الكامنه الى الشكل الوحيد المطابق للحلم والموائم له .

ان الافكار الكامنة التي يزيح التحليل النقاب عنها تبدو لنا اشبه بمجمّع نفسي هندسته متداخلة الى غير ما حدود ، وعناصره تقيم فيما بينها علاقات هي من اشد العلاقات تباينا ، فتارة تحتل مكانة الصدارة وطورا تتراجع الى المؤخرة ، وهي تشكل شروطا واستطرادات وتفسيرات وتبريرات ومتطلبات . وهناك على الدوام تقريبا الى جانب كل مجموعة افكار متداعية مجموعة افكار متداعية اخرى تناقضها ؛ وهذه المادة تتسم في

خاتمة المطاف بنفس السمات التي يتسم بها فكرنا في حالة اليقظة . وحتى يتحول هذا كله الى حلم ، فلا بد اولا ان تخضع المادة الحلمية لضغط تكون نتيجته الاولى تكثيف هذه المادة ، ونتيجته الثانية تفتيت عناصرها الداخلية . وهذه العناصر ، المجزاة على هذا النحو الى ما لا نهاية ، ستعيد بناء نفسها على اصعدة جديدة . وفي نهاية المطاف يأتي عمل الفرز والانتخاب ليقصي كل ما لا يتفق من هذه المادة الحلمية الجديدة مع التمثيل العيني وكل ما لا يصلح له . ونظرا الى اصول هذه المادة ، يمكننا ان نرى الى كل السيرورة التي اتينا بوصفها على انها سيرورة نكوص. فالروابط المنطقية التي كانت تربط الافكار الكامنة فيما بينها تضمحل تماما ما ان يتكون الحلم الظاهر ، اذ لا يعود العمل الحلمي يمارس تأثيره الا على المضمون القابل للاستعمال من الافكار الكامنة . وانما على عاتق التحليل تقع مهمة اعادة بناء التسلسلات والعلاقات المنطقية فيما بين هذه الافكار .

لنلاحظ هنا كم هي محدودة وسائل الحلم التعبيرية ، بالمقارنة مع وسائل الفكر في حالة اليقظة . بيد ان الحلم لا ينكص بوجه عام عن اعادة انتاج العلاقات المنطقية بين مواده ، وفي احيان كثيرة يتوصل الى تمثلها ؛ لكن لا غنى له، قبل ان يتمثلها، عن استبدالها بالاجزاء التي تبدو اكثر مواءمة ومطابقة لتشابكاته وتداخلاته الخاصة . بل في وسعنا ان نقول ان الحلم يبذل قصارى جهده ، ازاء جميع هذه الاجزاء المبسوطة امامه من الافكار ، لكي يلبي مقتضيات المنطق الآمرة . وهو يحشد ، في سبيل ذلك ، جميع مواده في موقف واحد ، وينتج من ثم تجمعا منطقيا بواسطة تقريب في الزمان والمكان . مثله في ذلك تقريبا مثل الرسام الذي يصور مجموعة من الشعراء الملتئم شملهم فوق جبل البرناس ، مع علمه الاكيد ان نماذجه لم تر قط في قمة جبل وان لوحته رمزية صرف .

ونفس هذا الاسلوب في التصوير يلاحظ في تفاصيل

الحلم . فحين يقرّب هذا الاخير بين عنصرين ، فهذا معناه ان هناك صلة حميمة بين الافكار الكامنة التي يمثلها هذان العنصران . والجدير بالملاحظة هنا ان جميع الاحلام المحلوم بها في ليلة واحدة ترجع بلا تغير ، عند التحليل ، الى حلقة واحدة من الافكار .

ان الرابطة السببية بين فكرتين يمكن ان تكون محذوفة ، كما يمكن ان تكون مستبدلة بتجاور مقطعين طويلين متنافرين . وكثيرا ما يكون هذان المقطعان مقلوبين ، فيمثل الاول النتيجة والثاني الفرضية . واعتقادنا ان كل تحول مباشر من شيء الى آخر يمثل في الحلم علاقة علة بمعلول .

قلنا آنفا ان الحلم لا يقبل التخيير بين امرين ، وانه حين تبرز فرضيتان ، يدخلهما كلتيهما في الحلقة نفسها من تداعي الافكار . وبعبارة اخرى ، ان حرف العطف «او» في مضمون الحلم الكامن يُستبدل في المضمون الظاهر بحرف العطف «و» .

وتعبر التصورات المتناقضة عن نفسها في الحلم في صورة عنصر واحد أوحد بصورة دائمة تقريبا (١) . ويبدو ان الـ «لا» فيه مجهولة . فالتعارض بين فكرتين ، تناحرهما ، يجد في الحلم تعبيره المميز: اذ يتحول فيه عنصر آخر، كما لو بعد فوات الاوان ، الى نقيضه . وسوف نرى فيما بعد ما الطريقة الاخرى التي يمكن بها للحلم ان يعبر عن التناقض . ولنقل ايضا ان الاحساس باستحالة التحرك ، وهو احساس متواتر ، يدل على ان النائم واقع تحت وطأة دافعين متعاكسي الاتجاه ينجم عنهما

---

١ ــ اكد علماء لغة بارزون ان المفاهيم المتناقضة مثل «القوي ــ الضعيف» و«الداخل ــ الخارج» لا تملك في اقدم اللغات الانسانية سوى كلمة واحدة للتعبير عنها . فالكلمات البدائية مزدوجة المعاني .

اصطراع في الارادة .

وهناك ايضا عدد محدد من العلاقات التي تبدو انفع من غيرها لاوالية تكوين الحلم ، اعني بها التداعيات عن طريق التشابه والتماس والتناظر . والحلم يستخدمها ليدعم بها عمله التكثيفي ، ويلم شمل جميع العناصر المتوافقة نقدر او بآخر في وحدة واحدة جديدة .

وغني عن البيان ان هذا التعداد البالغ الايجاز لبعض الملاحظات الاولية لا يكفي لاعطاء فكرة عن العدد اللامتناهي من الوسائل الموجودة في متناول الحلم كي يمثل العلاقات المنطقية بين عناصره . فكل حلم على حدة يقوم من وجهة النظر هذه بعمله الخاص الذي يكون تارة كثير التدقيق وطورا غير متقن ، تارة يتتبع عن كثب الموضوعة المقترحة وطورا ينأى عنها . وهو يستخدم على نطاق اوسع ، في الحالة الاخيرة هذه ، الطرائق التي اتينا بذكرها ، وعندئذ يبدو لنا الحلم على اشد ما يكون من الغموض والابهام وعدم الترابط . لكن الجدير بالملاحظة هو ان المضمون الظاهر حين يشط في عبثيته ولامعقوليته ، وحين ينطوي على تناقض فاضح صارخ ، يكون على الدوام وراء ذلك نية خفية ، وغالبا ما نكتشف تحت ستار هذا الازدراء الظاهر لقواعد المنطق اشارة الى المضمون العقلي لافكار الحلم . فالعبث في مضمون الحلم الظاهر يطابق ، في مضمونه الكامن ، شعورا بالمشاكسة او بالحقد او بالاحتقار . ولما كان هذا التأويل يقدم لنا خير حجة ضد النظرية التي تبغي ان تعزو الحلم الى نشاط ذهني مبتسر ومفكك ، فمن الواجب ان ندعمه هنا بمثال :

حلمت بأن فتى من معارفي ، م.ه ، تعرض اثناء مجادلة لانتقاد عنيف من قبل خصم هو غوته العظيم بعينه . وكان ذلك التهجم ، في رأينا جميعا ، ظالما بقدر ما هو عنيف . وقد أحس م.ه على اثر ذلك

بسمعته تتضاءل شأنا . وقد اشتكى من ذلك بمرارة على مائدة المضيف . بيد ان هذا الحادث لم يؤثـــر البتة على حماسته لغوته . وقد سعيت من جانبي الى تسليط الضوء على بعــض نقاط تتصـــــل بالتسلسل التاريخي ، بدت لي بعيدة عن الحقيقة. فقد توفي غوته في عام ١٨٣٢ . وقد دارت مجادلته مع م.ه في زمن سابق ... لكن م.ه كان في ذلك الوقت فتى يافعا . وبعد امعان التفكير ، يبدو لي انه من المعقول التسليم بأنه كان في الثامنة عشرة من العمر . لكني لا اعرف على وجه التحديد في اي عام نحن . كما ان باقي حسابي يحيط به الظلام . أضف الى ذلك كله ان كل تلك المجادلة متضمنة في كتاب غوته الشهير : «طبيعة» !

ان لامعقولية هذا الحلم تتضح بمزيد من الجـلاء ايضا اذا علمنا ان م.ه رجل اعمال صغير السن للغاية ولا يكترث بتاتـــا بالشعر والادب . وسوف نحاول الان ان نعرض مضمون الحلم ونشرحه عن طريق التحليل ، وان نميط اللثام عن كل المنطـق الذي يختبىء وراء تلك اللامعقولية .

١ ــ رجاني ذات يوم م.ه ، الذي تعرفت اليه على مائـدة مضيف ، ان أفحص اخاه الاكبر الذي تصدر عنه علائم اختلال عقلي . وفيما كنت أتحدث مع المريض فوجئت به يلمح ، بلا اي استثارة من جانبي ، الى انحرافات اخيه اثناء فتوته . وكنت قد سألته عن تاريخ ميلاده (تاريخ الموت في الحلم) ، وحرضته على اجراء بعض الحسابات امامي حتى آخذ فكرة عن بعــض مظاهر الخلل في الذاكرة .

٢ ــ كانت مجلة طبية ، كنت عضوا فيهـــا ، قد نشرت ،

تحت اسم محرر صغير السن للغاية ، نقدا عنيفا لكتاب واحد من اصدقائي ، ف ، من برلين . وقد سألت رئيس التحريـــر ان يتدارك الامر ويرد الاعتبار لصديقي ، بيد انه رفض ، مع اعرابه عن شديد اسفه ، القيام باي شكل من اشكال التصويب . وفي اعقاب ذلك قطعت صلاتي بالمجلة ، لكني عبرت عن الامل ، في رسالة الوداع ، بألا تتأثر علاقاتنا الشخصية بسبب ذلـــك الحادث . هنا يكمن المنبع الحقيقي للحلم . فقد حز في نفسي الاستقبال السيء الذي قوبل به كتاب صديقي، ولاسيما ان هذا الكتاب اشتمل على اكتشاف بيولوجي اعده اساسيا ولم يشرع الزملاء ــ بعد العديد من الاعوام ــ بتقديره الا اليوم فقط .

٣ ــ كانت واحدة من مريضاتي قد روت لي قبيل ذلك الزمن بقليل قصة مرض شقيقها الذي المت به نوبة هذيان حاد بدأت بصرخة : «طبيعة ، طبيعة !» . وقد ارتأى الاطباء ان هـــذه الصرخة مستوحاة من مطالعة واحد من مؤلفات غوته وتقـــدم برهانا قاطعا على ان المريض ارهق قواه في دراسته . اما انا فقد بدا لي انه من المعقول ان تؤخذ صرخة الـ «طبيعة» تلك بالمعنى الجنسي الذي يعرفه جميع الناس عندنا ، جاهلهم وعالمهم على حد سواء . ولم يخطئني مجرى الاحداث ، لان ذلك التعيس بتر اعضاءه التناسلية فيما بعد . وكان في الثامنـــة عشرة حين حدثت النوبة .

وان ما يختبىء تحت «الانا» ، في المضمون الظاهر لهـــذا الحلم ، هو شخص ذلك الصديق الذي اساء النقد معاملته . وسأعمل على توضيح بعض النقاط المتعلقة بالتسلسل التاريخي. فكتاب صديقي يعالج على وجه التحديد ، من وجهة نظـــر بيولوجية ، بعض الظروف الزمانية ؛ ومن ذلك انه يقسم حياة غوته الى عدد محدد من المراحل . والحلم يماهي هذا «الأنـــا» برجل مصاب بشلل عام : «لا اعرف في اي عام نحن» . اذن ، صديقي هو المجنون في الحلم . وهنا نلمس العبث واللامعقولية

لمس اليد . ففي افكار الحلم الكامنة نلقى هذا التأنيب الساخر: «اهو الان المأفون ، المجنون ... وأنتم الذين تنتقدونه يا اهل العبقرية ! اليس العكس هو الصحيح بالاحرى ؟» . هذا **القلب** سيتبناه الحلم الذي سيرينا غوته وهو ينهال بالتقريع الشديد على فتى ــ موقف لا معقول ــ مع ان العكس ، اي قيام مراهق بتوجيه الانتقاد الى غوته العظيم ، هو الذي يمكن ان يحصل في أيامنا .

ان الحلم ، كما لاحظت ، لا يستوحي ابدا غير المشاعر الشخصية ؛ وشخصيتي في الحلم الآنف الذكر هي المتمثلة ب «الأنا» حتى قبل شخصية صديقي . واذا كنت قد تقمصت شخصية هذا الصديق ، فهذا لان مصير اكتشافه يرمز في نظري الى نجاح نظريتي الخاصة . فيوم سأعرض هذه النظرية، التي ترجع الى الجنس علة جميع الاضطرابات السيكوباتية (راجع تشخيصي للمريض الذي في الثامنة عشرة : «طبيعة ، طبيعة ...») ، فلا شك في انني سالاقي الانتقادات نفسها التي أقابلها من اليوم بالذات بشعور السخرية نفسه .

اذا تابعنا تحليل هذا الحلم ، لاحظنا ان جميع ضروب العبث التي يمكن ان نصادفها فيه تعود في اصلها الى شعور هزء او ازدراء . فمعروف ان غوته ابتدع نظريته عن الفقرات القحفية في البندقية حين التقط في الليدو (١) بقايا قحف خروف . والحال ان صديقي يتباهى بأنه نظم ، حين كان طالبا، حملة صاخبة ليحصل على معاش تقاعدي لاستاذ مسن كان فيما مضى نابها (على وجه التحديد في ذلك الفرع من التشريح المقارن) لكنه بات عاجزا عن التعليم بسبب الشيخوخة . وكانت الحركة التي قام بها صديقي هي وحدها القمينة بتدارك الامر ،

١ ــ الليدو : مجموعة جزر قرب البندقية تشكل ميناءها . «م»

لانه لم يكن هناك وجود في الجامعات الالمانية ـ التي تتناسى ان السن ليست ضمانة ضد البلاهة ـ لسقف العمر في التعليم الجامعي . وكان قد اتيح لي ، في مستشفى تلك المدينة ، شرف العمل طوال سنوات تحت اشراف رئيس كان قد تحجر منـــذ زمن طويل وصار ، في راي الجميع ، ابله ، من دون ان يفكر احد بتجريده من اي من مسؤولياته . والحق ان ثمة علاقـــة تفرض نفسها بين هذا التفصيل وبين اكتشاف الليدو . فقد الف ذات يوم زملائي الشبان في المستشفى بصدد ذلك الرئيس محاكاة ساخرة لقصيدة غاسنهاور التي كانت رائجة في تلك الايام: «ليس غوته من كتب كهـــذا ... وليست هذه الاشعـــــار لشيلر ...» الخ .

- ٧ -

لم ننته من دراسة عمل الحلم . اذ لا بد ان نضيف الى تكثيف المادة النفسية ونقلها واخراجها العيني نشاطا آخر ايضا . وهذا النشاط لا يسهم بالضرورة في كل تكوين حلمي ، ولنقل ـ من دون ان ندخل في مناقشة تفاصيله ـ انه كي يسعنا ان نتصوره بشيء من الدقة فلا مناص من التسليم بفرضية ـ غير صحيحة على الارجح ـ تقول بنشاط لا يؤثر على مضمون الحلم الا بعديا ، وإلا بعد ان تكون مختلف اجزاء هـذا الحلم قد اخذت شكلها الرمزي . ويكمن عمل الحلم عندئذ في التصرف بتلك الرموز وترتيبها على نحو تتحول معه الى منظومة متلاحمة، الى تمثيل منظم . هكذا يكتسب الحلم ضربا من واجهة غير كافية في الحقيقة ، ولا تستر جميع اجزائه ؛ بيد انه يتلقى، عن طريق بعض الوصلات وبعض التعديلات الطفيفة ، تأويلا مؤقتا وتقريبيا . وباختصار ، لا نجد هنا سوى تنكير أريب للافكار الكامنة . وحين نشرع بتحليل ما ، يجب ان يكون همنا الاول التصدي لمثل دلك التأويل المجاوز الحد في ارهافه .

ما هو اذن حافز هذا القسم الاخير من العمل ، هـــذه المراجعة الختامية لمضمون الحلم ؟ من اليسير ان نرى ان الهدف الاوحد من ذلك هو جعل الحلم قابلا للفهم ، ومن هنا ندرك ما طبيعة ذلك النشاط . فهو يؤثر على مضمون الحلم المقدم لــه بنفس الطريقة التي يؤثر بها نشاطنا النفسي العادي على جميع مواضيع الادراك الحسي ؛ فنشاطنا النفسي يتعقل هذه المواضيع بالاستعانة بما في حوزته من تصورات قبلية، وينظمها حسب حظها من قابلية الفهم ، مجازفا بالتالي بتزييفها ؛ وهذا لان موضـــوع الادراك الحسي اذا كان غير قابل للمماثلة مع اي موضوع آخر معروف ، فان تأويله سيكون عرضة للوقوع في اغرب الاخطاء . وكل واحد منا يعلم اننا نعجز عن انعام النظر في مجموعة من الاشارات الغريبة او الكلمات المجهولة من دون ان تحملنا على التفكير للحال بالالفاظ المعروفة التي تشبهها اكثر من غيرها والتي نجد في انفسنا ما يغرينا بمماثلتها بها .

ان الاحلام التي اعيد الشغل بها على هذا النحو من قبل نشاط نفسي مماثل لفكرنا في حالة اليقظة هي احلام «جيدة التركيب» . وهناك احلام اخرى لم يؤثر فيها هذا النشاط ولم يترك بصمته عليها ؛ فلم تبذل اي محاولة لاقرار النظام فيهـا ولإسباغ معنى عليها ؛ وحين نستيقظ نحكم على الصور التـي علقت في ذاكرتنا بأنها مفككة وغير متلاحمة بالمرة . لكن هـــذه الكومة من المواد المتنافرة لها ، من وجهة نظر التحليـــل ، نفس القيمة التي لحلم سطحي الترتيب . بل لعل الحالـــــة الاولى ستغنينا عن مشقة القيام من البداية بعمليـــة تفكيك لترتيب مؤقت .

ولكن يخطىء مع ذلك من لا يريد ان يرى في واجهة الحلم الاولى هذه سوى غلطة او نزوة من نشاطنا النفسي الواعي . فقد استوجب بناؤها ، على العكس ، عددا معينا من الرغائب

والهواجس والتخيلات المشابهة لتلك التي نلقاها في افكار الحلم الكامنة والتي هي من نفس طبيعة الرغائب والهواجس والتخيلات التي نعرفها في حالة اليقظة ونسميها بحق «احلام يقظة» . هذه الرغائب والتخيلات، التي يكتشفها التحليل في الحلم الليلي، تتبدى لنا فيه في صورة مشاهد طفلية معاد النظر فيها ومحولة بقدر او بآخر . انها هي واجهة الحلم ، ويسهل علينا في اغلب الحالات ان نضع اصبعنا فورا على نواتها الاساسية التي قامت مواد اخرى بتنكيرها وحجبها ليس الا .

ان اشكال النشاط الاربعة التي اتينا بذكرها هي وحدها التي تؤلف عمل الحلم . نستطيع ، اذن ، ان نعرّف هذا العمل بقولنا انه تحويل الافكار الكامنة الى مضمون ظاهر ليس الا . ويترتب على هذا التعريف ان عمل الحلم لا يكون ابدا مبدعا خلاقا ، وأنه لا يتخيل شيئا من عندياته ، ولا يحكم ، ولا يخلص الى نتيجة . وقوام نشاطه تكثيف جميع مواد الحلم ونقلها وتحويرها بغرض تمثيل حواسي . وفي نهاية المطاف ، ينضاف الى ذلك كله العمل الترتيبي المتمم الذي اشرنا اليه .

وفي الحقيقة ، نصادف في مضمون الحلم عددا لا بأس به من العناصر التي قد نجد ما يغرينا بأن نعتبرها نتيجة نشاط عقلي محض . لكن التحليل ماثل بين ايدينا ليبرهن لنا على ان **هذه العمليات العقلية تمت من قبل في افكار الحلم الكامنة ، وان الحلم اكتفى بنسخها طبق الاصل** . فاذا ما صادفنا في الحلم استنتاجا منطقيا ، فانه لا يعدو ان يكون استنساخا لفظيا لمنطق افكار الحلم ؛ وهذا الاستنساخ يبدو لنا وكانه لا غبار عليه حين يندرج بلا تحريف في مضمون الحلم ، لكنه يمسي عبثيا ومخالفا للمعقول حين يسحبه عمل الحلم على مواد اخرى . كذلك ، فان وجود عملية حسابية في مضمون الحلم يعني فقط انه كانت هناك عملية حسابية مماثلة بين الافكار الكامنة . والفارق الوحيد ان العملية الحسابية الاخيرة كانت صحيحة ،

بينما نجدها تتمخض عن اغرب النتائج وأكثرهـــا شططا حين نلقاها مجددا في المضمون الظاهر ، وذلك في أعقاب تكثيـــف عواملها وسحب عملياتها على مواد اخرى . وحتى الاقوال التي نلقاها في مضمون الحلم ليست البتة اقوالا اصلية ، وانما هي فسيفساء نلفى فيها نبذا مختلفة مقتبسة من أقوال يمكن ان يكون النائم قد نطق بها او سمعها او قرأها ؛ فاحتفظت الذاكرة بتلك النبذ ، ونسخها الحلم بحذافيرها ، لكنه نسي موضوعها وحوّل معناه بصورة تبعث على الدهشة العميقة .

ولعل الامر لا يخلو من فائدة اذا دعمنا هذه القواعد الاخيرة ببعض أمثلة :

١ ـ اليكم حلم واحدة من مرضاي ، وهو حلم حســـن الترتيب ، وبريء للغاية للوهلة الاولى :

> ذهبت هذه السيدة الى السوق بصحبة طاهيتها التي تحمل السلة . وتقدمت بطلبهـــا الى الجزار ، فاجاب : «هذا ما عاد يوجد منه» ، واراد ان يعطيها قطعة اخرى قال عنها انها من نفس النوع ؛ لكنهـــا رفضت وتحولت عنه الى بائعة الخضار . وقدمت لها هذه المراة خضرة غريبة المظهر ، ضاربة الى السواد ، ومربوطة في شكل حزمة . فقالت : «لا اريد ان ارى هذا ، لن آخذ منه» .

ان اصل جملة : «هذا ما عاد يوجد منه» يكمن في عيادتي بالذات . فقد كنت قلت بنفسي للمريضة ، قبل ايام قليلة ، ان ذكريات الطفولة الاولى لا تعود موجودة كما هي ، لكن نظـــل نصادفها في الاحلام وقد تبدل موضعها . اذن ، الجزار هـــو الذي يمثلني هنا .

وتنتمي الجملة الثانية : «لا اريد ان ارى هذا» الى تداعي افكار آخر . فقد كانت تلك السيدة أنّبت البارحة طاهيتها ، وهي عينها التي تلعب دورا في الحلم ، وقالت لها «اسلكي سلوكا لائقا ؛ لا اريد ان ارى هذا . .» اي لا أسمح ، لا اريد ان ارى مثل هذا السلوك . وقد تعرض القسم المنعدم الدلالة من هذا الكلام لنقل جعله يظهر في مضمون الحلم . اما في افكار الحلم فان القسم الآخر هو وحده الذي لعب دورا ، وإليكم كيف حدث ما حدث : فالموقف الذي لم يكن له من وجود الا في مخيلة النائمة ، والذي سلكت فيه انا نفسي تجاه تلك السيدة مسلكا غير لائق بنوع ما ، قد حوله عمل الحلم على نحو بات يصعب معه تعرفه وأسبغ عليه مظهرا بريئا تماما . وما ذلك الموقف المتخيل بدوره الا محاكاة لموقف وجدت فيه المريضة نفسها فعلا في زمن سابق .

٢ ـ اليكم حلما عديم الدلالة في الظاهر ، تظهر فيه أرقام:

> حلمت امراة بأنها تريد ان تسدد دفعة ما ، فأخذت ابنتها كيس النقود من يديها واخرجت منه ٣ فلورانات و٦٥ كروزيرا . عندئذ قالت لها : «ماذا تفعلين ؟ هذا لا يكلف سوى ٢١ كروزيرا !» .

كانت تلك المراة اجنبية . وكانت قد وضعت ابنتها في معهد للبنات في فيينا ، وعقدت العزم على الاستمرار في المعالجة عندي ما دامت طفلتها مقيمة في تلك المدينة . وفي عشية الحلم، سألتها مديرة المدرسة الداخلية هل تزمع ان تترك لها ابنتها عاما آخر ، مما يعني ان امد معالجتها عندي سيطول لمدة عام ايضا . وحتى نجد معنى لارقام الحلم ينبغي ان نتذكر قول القائل ان «الوقت من فضة» . والسنة تتألف من ٣٦٥ يوما . واذا ترجمنا ذلك الى كروزيرات تكون النتيجة ٣٦٥

كروزيرا ، او ٣ فلورانات و٦٥ كروزيرا . اما الـ «٢١ كروزيرا» فهي تناظر الـ «٣ اسابيع» التي كانت لا تزال تفصل في تلك اللحظة يوم الحلم عن نهاية الدروس وعن نهاية المعالجة عندي . وظاهر للعيان ان اعتبارات مالية هي التي جعلت تلك السيدة تقرر رفض اقتراح المديرة ، وهي التي حددت ايضا ضآلة المبلغ المدفوع في الحلم .

٣ ـ علمت امرأة في مقتبل العمر ، مضى على زواجها عدة سنوات ، ان واحدة من معارفها تضاهيها عمرا ، الآنسة إليز. ل ، قد عقدت خطوبتها . وفي الليلة التالية حلمت انها في المسرح مع زوجها . وكان عدد لا بأس به من المقاعد في الصالة لا يزال خاليا . وقال الزوج ان إليز. ل وخطيبها كانا يزمعان المجيء ، ولكن لم يكن قد تبقى الا مقاعد بـ ١ فلوران و٥٠ كروزيرا لكل ثلاثة ، فارتأيا انه من غير الممكن القبول بتلك المقاعد . فأجابته قائلة ان المصيبة ليست كبيرة .

ان ما يستأثر باهتمامنا هنا ان نعلم كيف يعود اصل الارقام الى افكار الحلم الكامنة ، وما التحولات التي طرات على هذه الارقام . من اين جاء مبلغ الـ ١ فلوران والـ ٥٠ كروزيرا ؟ جاء من حادث غير ذي شأن حدث عشية : فقد تلقت اخت زوج تلك السيدة هدية من زوجها مقدارها ١٥٠ فلورانا ، فأسرعت تنفقها لشراء حلية . ولنلاحظ ان ١٥٠ فلورانا تعادل مئة ضعف ١ فلوران و٥٠ كروزيرا . اما بالنسبة الى الرقم ٣ المقترن بسعر تذاكر المسرح ، فلا نجد سوى تداع واحد : فالخطيبة ، إليز. ل ، تصغر صديقتها بثلاثة شهور . وموقف الحلم يحاكي

مغامرة بسيطة كانت لاكثر من مرة سببا لمضايقات بين الزوجين: فقد كانت المراة الصبية تعجلت شراء تذاكر المسرح سلفا ودخلت الى القاعة في وقت كان لا يزال فيه جانب كامل من الصالـــة خاليا . لم تكن هناك فائدة ترجى اذن من التعجل . ولنلاحظ اخيرا ان هذا الحلم ينطوي على ضرب من العبث : قيام شخصين بشراء ثلاث بطاقات دخول الى المسرح !

لا شك في ان افكار الحلم الكامنة هي التالية : «اكنت بلهاء اذ تزوجت مبكرا ! ما كانت حاجتي الى هذا القدر من التعجل ؟ ان مثال إليز لدليل على انه كان في وسعي على الدوام فـــي النهاية ان اجد زوجا ، وما كان عليّ الا ان انتظر ، ولو كنت فعلت لحصلت على (زوج او حلية) افضل بمئة مرة . ومقابل ذلك المال (البائنة) كان في وسعي ان اشتري ثلاثة !» .

- ٨ -

بعد استعراضنا لطرائق عمل الحلم ، قد نجد ما يغرينا بأن نرى في هذا العمل سيرورة نفسية خاصة لا يمكن مقارنتها، على حد علمنا ، بأي شيء آخر . ولعله لن يتخلف عن ان يبعث فينا بعض الدهشة النظرية التي طالما بعثها ، على مر الازمان ، نتاجه ، اي الحلم نفسه .

في الواقع ، ليس عمل الحلم سوى السيرورة الاولى التي حظيت بأكبر قدر من الدراسة بين سلسلة من السيرورات النفسية ، هي على وجه التحديد تلك التي يرتد اليها انتاج الاعراض الهستيرية وضروب الحصر والوساوس والاختلالات العقلية ، الخ. فجميع هذه السيرورات تتجلى فيها ايضا خواص التكثيف والنقل ، وعلى الاخص الاخير ؛ فيما يبقى التحوير بفرض التمثيل الحواسي وقفا على عمل الحلم .

اذا كانت سيرورة الحلم اذن هي السيرورة عينها التي تتولد عنها الصور المرضية ، فلن تكون الفائدة المجتناة من تحديد الشروط التي تتم فيها الا اكبر واعظم . ولن تكون دهشتنا قليلة

اذا علمنا انه من الممكن ان تحدث بدون وساطة الحلم وبدون وساطة المرض ، وان عددا لا بأس به من الظاهرات الخاصة بالحياة اليومية للافراد الاسوياء ، كضروب النسيان وزلات اللسان وهفوات السلوك ، يتكون بنفس الأوالية التي يتكون بها الحلم وجميع الاعراض المرضية المشار اليها اعلاه .

ان عقدة المعضلة تكمن في سيرورة النقل ، وهي السيرورة التي تستأهل منا ، على ما نحسب ، اكبر قدر ممكن من الاهتمام . فلمعرفة الشرط الاساسي للنقل ، لا بد من تناول المشكلة من وجهة نظر سيكولوجية خالصة . وسوف يتضح لنا في هذه الحال ان تلك الظاهرة تحدث فقط تحت سطوة **الضرورة** ، ويتوجب علينا ، حتى نفهمها ، ان نحاول تذليل بعض الصعوبات التي لا يفلت منها الا بمشقة من يدرس الاحلام.

حين قدمت ، في مستهل هذا البحث ، واحدا من احلامي مثالا على التحليل ، اضطررت الى ايقاف عملية جرد افكاري الكامنة لان بينها افكارا آثرت ان اكتمها ، وما كان في مستطاعي ان اجاهر بها من دون ان اتعدى حدود اللياقة . وقد اضفت قولي انه لا جدوى تجتنى من استبدال ذلك التحليل بتحليل آخر ، لانني سأصطدم في نهاية المطاف ، وأيا يكن الحلم الواقع عليه الاختيار ، حتى ولو كان اكثر الاحلام غموضا وتشوشا ، بأفكار كامنة لا استطيع افشاء سرها من دون ان أخرج عن حدود الرصانة . بيد انني بعد ان نحيت جانبا الشهود على هذه المشاحنات الداخلية الحميمة ، تابعت التحليل بيني وبين نفسي ، فلقيت افكارا اثارت عميق دهشتي . فأنا ما كنت اعرف لي افكارا كتلك ؛ وقد بدت لي لا **غريبة** عني فحسب ، بل **مؤلمة** تحز في النفس ايضا ؛ وقد رحت أدافعها عني بكل ما أوتيت من قوة ، بيد انني شعرت انها تفرض نفسها عليّ فرضا بقوة منطق الافكار الكامنة . وانا لا استطيع تفسيرا لهذا الامر الا بطريقة واحدة ، وذلك بالتسليم بأن تلك الافكار وجدت فعلا

فيّ ، وبأنها تحظى في داخلي بشيء من الشدة او القــــوة النفسية ، ولكنها في موقف نفسي خاص تجاهي يحول بينـــي وبين وعيها . هذا الموقف الخاص ، اطلق عليه اسم **حالـــــة الكبت** . وعندئذ لا اجد مناصا من الاقرار بأن هناك علاقة علة بمعلول بين غموض الحلم الظاهر وحالة كبت الافكار الكامنة ، اي بعبارة اخرى النفور الذي يخالجني من ادراك هذه الافكار ووعيها . واخلص من ذلك كله الى الاستنتاج بأنه اذا كان الحلم غامضا ، فهذا بداعي الضرورة وتحاشيا الافصاح عن بعـــض الافكار الكامنة التي **يستهجنها وعيي** . هكذا ينجلي سر عمـــل **التحريف**الذي هو اشبه ما يكون ، بالنسبة الى الحلم ، **بتنكير** حقيقي .

ولن تكون الفائدة معدومة لو فتشنا ، في الحلم الـــــذي اقترحته للتحليل ، عن تلك الفكرة من افكاري التي لا تتبدى الا متنكرة خشية ان اقابلها بشجب عنيف فيما لو تبدت بلا قناع ولا حجاب . انني اعلم ان الجولة التي تكلمت عنها ، تلك الجولة المجانية في العربة ، قد ذكرتني بجولات اخرى اكثر تكلفـــــة بصحبة شخص من اسرتي ، وان دلالة الحلم تبـــدو كالتالي : «بودي ان اعرف حبا متجردا» . والحال انني كنت قد انفقت ، قبل ان احلم هذا الحلم بزمن قليل ، مبلغا كبيرا من المال على الشخص المذكور . وحيال هذا التداعي في الافكار اجدني مرغما على الاقرار بيني وبين نفسي بأنني آسف على انفاق ما انفقته . وانما عندما اقر بإحساس كهذا استطيع ان اتوصل الى فهم ما تعنيه ، في حلمي ، الرغبة في حب لا يستدعي نفقة . هذا مع انه في وسعي ان اقول بكل صراحة انني لم اتردد دقيقة واحدة في انفاق ذلك المبلغ ؛ والاسف الذي انتابني على ذلك يؤلـــف جزءا من تيار لم يمس وعيي ، ولو مسا خفيفا . لماذا لم يفعل ذلك ؟ هذه في الحق مسألة اخرى ، وقمينة بأن تتوغل بنا الى ابعد مما ينبغي . والجواب الذي يسعني ان اجده لها ينتمي الى

تداعي افكار آخر .

لو حللت ، بدلا من حلمي الخاص ، حلم شخص غريب ، لتوصلت الى استنتاجات مماثلة ؛ ووسائلي في الفحص والتدقيق هي وحدها التي ستكون مختلفة بعض الشيء . فاذا كان الحلم المطلوب تفسيره حلم شخص سوي ، امكنني ان اقود هذا الشخص ، ببياني له تسلسل افكار الحلم وترابطها ، الى تعرف افكاره المكبوتة . على انه سيبقى حرا في نفيها وإنكارها رغم كل شيء . اما اذا كان صاحب الحلم مريضا عصبيا، يشكو من الهستيريا على سبيل المثال ، فلا مناص ، لحمله على تعرف الافكار **المكبوتة** ، من ان ابين له العلاقة القائمة بين هذه الافكار وبين اعراض مرضه ، ومن ان الح كذلك على واقع ان حالته تحسنت بمجرد ان حلت الافكار المكبوتة محل الاعراض .

لنعد الى مثال تلك المراة الصبية التي روت لي حلم تذاكر المسرح الثلاث ب ١ فلوران و٥٠ كروزيرا . فقد اظهر تحليل افكارها الكامنة انها لا تحفل بزوجها ولا تأبه له بتاتا ، وانها تفضل لو انها لم تتزوجه ، وأنها لن تأسف لو حل محله آخر . صحيح انها تزعم انها تحبه ؛ فلا تعترف بأن الازدراء الذي تعامله به (غيره يمكن ان يكون «افضل بمئة مرة» !) يمكن ان يمس ولو بأي صورة من الصور حياتها العاطفية ؛ لكن جميع اعراضها تقود الى نفس حل ذلك الحلم ؛ وحسبنا ان نوقظ فيها الذكريات المكبوتة العائدة الى عهد كانت فيه على اتم وعي بأنها لا تحب زوجها ، حتى تنحل الاعراض وحتى تكف المريضة عن الاحتجاج على تأويلي .

- ٩ -

لقد بات في مقدورنا ، بعد ان حددنا مفهوم الكبت وبينّا العلاقات القائمة بين **تحريف** الحلم وبين المادة النفسية المكبوتة، ان نوجز بصورة عامة الاستنتاجات الرئيسية التي استنبطناها من أبحاثنا .

نحن نعلم ان الاحلام اللبيبة والمعقولة هي تحقيق غير متنكر لرغبة من الرغبات . وبعبارة اخرى ، نعلم ان الرغبة التي تبين لنا هذه الاحلام تحقيقها العيني هي رغبة يقر بها الوعي ، لم تجد تلبية في الحياة اليومية ، لكنها جديرة بكل اهتمام . ويطلعنا تحليل الاحلام المبهمة والعويصة على شيء مماثل : فأساس هذه الاحلام هو بدوره رغبة متحققة ، رغبة تكشفها لنا من الجهة المقابلة الافكار الكامنة . والفارق الوحيد ان تمثيل هذه الرغبة لا يزال غامضا ، معتما ؛ وحتى نسلط عليه الضوء لا بد من اللجوء الى التحليل ، وسيزيح التحليل لنا النقاب تارة عن رغبة مكبوتة ولاشعورية ، وطورا عن رغبة وثيقة الالتحام بأفكار مكبوتة ، ومحمولة من قبلها ان جاز التعبير . وفي وسعنا تمييز

هذه الاحلام بقولنا انها **تحقيق مقنع لرغبات مكبوتة** . ولنلاحظ فضلا عن ذلك ، وهذا امر مثير للاهتمام ، ان الحكمة الشعبية تصيب حين تقول ان الأحلام تتكهن بالمستقبل . فبالفعل ، ان ما يظهره لنا الحلم هو المستقبل ، لا كما سيتحقق ، وانما كما نتمنى ان نراه متحققا ؛ والروح الشعبية تفعل هنا ما اعتادت ان تفعله في مواضع اخرى : فهي تصدق ما ترغب فيه .

من الممكن تقسيم الاحلام ، من منظور تحقيق الرغبات ، الى ثلاث فئات : فلدينا اولا الحلم الذي يمثل بلا تنكر رغبة غير مكبوتة ، وهو الحلم من النمط الطفلي ، وينزع الى التنادر كلما تقدم الطفل في العمر . ولدينا ثانيا الحلم الذي يمثل رغبة مكبوتة في إهاب تنكري . وغالبية احلامنا تنتمي الى هذا النمط ، ولهذا لا يمكن فهمها بلا تحليل . ويأتي ثالثا واخيرا الحلم الذي يعبر عن رغبة مكبوتة ولكن **من دون ان ينكّرها أو لا ينكرها الا بأدنى الحدود** . هذا الحلم الاخير يرافقه دوما احساس بالحصر يرغمه على التوقف ، وتشير جميع الدلائل الى انه معادل عمل التنكير ، وذلك ما دام النائم لا ينجو من الحصر في أحلام الفئة الثانية الا بفضل هذا العمل . وما اسهل ان نقيم البرهان على ان موقف الحلم الذي يسبب الحصر لا يعدو ان يكون رغبة قديمة غير متحققة جرى كبتها منذ عهد بعيد .

واننا لنجد بين الاحلام المفهومة احلاما يشق مضمونها على النفس ولكنها لا توقظ لدى النائم مع ذلك اي احساس بالحصر . ولا نستطيع ان نضع هذه الاحلام في مصاف احلام الحصر . وهي بمثابة حجة تدعم راي اولئك الذين يريدون ان ينكروا على تظاهرات الحلم كل دلالة وكل قيمة . وحسبنا مثال واحد كي نبين ان هذه الاحلام ليست سوى **تحقيقات مقنّعة لرغبات مكبوتة** ، وتنتمي بلا مراء الى الفئة الثانية . وسوف نرى ايضا مدى براعة عمل النمل في تنكير الرغبة .

حلمت فتاة بأن طفل أختها الثاني قضى نحبه ، وبأنها تقف

امام النعش تماما كما كانت وقفت قبل بضعة أعوام امام نعش الوليد الاول للاسرة ذاتها . ولم يبعث هذا المشهد في نفسها اي حزن .

وقد رفضت الفتاة بالطبع ان يتم تأويل حلمها على اساس رغبة دفينة . وليس ذلك بتأويلنا اصلا . لكن الجدير بالملاحظة انها كانت التقت بالرجل الذي تحبه بالقرب من نعش الطفل الاول ، وقد كلمته ، ثم لم تره ثانية قط . ونحن لا يداخلنا شك بأنها لن تلتقي من جديد ، اذا مات الطفل الثاني ، بذلك الرجل في بيت اختها . وثائرتها تثور اصلا على هذه الفرضية ، لكنها تتمنى بكل حرارة نتيجتها . وكانت قد اخذت ، في اليوم السابق للحلم ، بطاقة دخول الى محاضرة كان الامل راودها بأن تشاهده فيها . الحلم اذن حلم جزع ونفاد صبر ليس الا ، مثله مثل اي حلم يحدث قبل سفر او قبل سهرة في المسرح ، بانتظار اي متعة من المتع. لكن لا بد ان تخفى على الفتاة رغبتها بالذات؛ عندئذ يحل محل واحد من مظاهر الموقف مظهر آخر غير اهل بأي صورة من الصور لان يبعث على الفرح . ومع ذلك ، لا يبارح الفرح النائمة . ولنلاحظ ايضا ان العنصرالوجداني في الحلم لا يتكيف الا مع مضمونه الكامن ، اي المضمون الذي جرى كبته ؛ ونظرا الى ان هذه الفكرة الكامنة هي فكرة لقاء طالما تاقت اليه النفس ، كان من المتعذر ان يصاحبها شعور بالحزن والكرب .

- ١٠ -

ما دامت الفرصة لم تسنح حتى اليوم للفلاسفة كي يصبئوا اهتمامهم على فلسفة للكبت ، فاننا نرى انه من الضروري ، في هذا الاحتكاك الاول مع معضلة تكوين الحلم الملغزة ، ان نحاول عرضها بأكبر قدر مستطاع من الوضوح . وقد استعنا ، في مخططنا ، بدراسات اخرى غير دراسة الحلم – ولئن امكن في البداية ان يبدو مخططنا على شيء من التعقيد ، فقد اتضح لنا من جهة اخرى ان ما من تعقيد من هذه التعقيدات فائض عن الحاجة وغير ضروري .

اننا نسلم بوجود وظيفتين خلاقتين للفكر في جهازنا النفسي . وتتمتع ثانية هاتين الوظيفتين بامتياز محدد ، وهو ان جميع منتجاتها تصبح للحال جزءا من الوعي ، بينما يبقى نشاط الاولى لاواعيا او لا يدلف الى الوعي الا بواسطة الثانية .

وعند الحد الفاصل بين هاتين الوظيفتين ، وفي النقطة التي تلتحم فيها الاولى بالثانية ، توجد رقابة لا تدع شيئا يمر الا ما كان محببا لها ، وتنبذ الباقي . هذه المنتجات المنبوذة من

قبل الرقابة تشق طريقها عندئذ ، على حد التعبير الذي استخدمناه ، الى حالة الكبت .

لكن النشاطات المتقابلة للوظيفتين لا تبقى على حالها في بعض الشروط ، وبالتحديد اثناء الرقاد الذي ينجم عنه بعض الارتخاء في حبل الرقابة ؛ وعندئذ لا يعود في الامكان نبذ المنتجات المكبوتة بتمامها ، بل تفلح في شق طريق لها نحو الوعي . ولكن بالنظر الى الوهن الذي يمكن ان يكون قد طرأ على الرقابة ، وبالنظر ايضا الى انه من المتعذر الغاؤها ، فلا محيد حتى تجد المواضيع المكبوتة قبولا لها في الوعي ، عن ان تتنكر على نحو تفقد معه طابعها المقيت المنفّر ؛ وعندئذ يكون ما يتسرب منها الى الوعي بمثابة تسوية بين نوازع الوظيفة الاولى ووساوس الثانية وتشككاتها .

لنلاحظ هنا ، بصرف النظر عن صور الحلم ، ان الكبت وارتخاء حبل الرقابة والقبول بتسوية هي في اساس كل سيرورة تسهم في تكوين صورة سيكوباتية ؛ وانه تتضافر في تكوين هذه التسوية سيرورات التكثيف والنقل وحتى الترتيب المؤقت والسطحي التي درسناها في عمل الحلم .

نحن لا نسعى الى ان نخفي ان عرضنا هذا مشوب على نطاق واسع بضرب من مصطلحات شيطانية . فقد بدا لنا بالفعل ان سيرورة تكوين الحلم الغامض تشبه المجهود الذي قد يبذله مرؤوس ما ليدس خلسة كلمة يعلم انها لا بد ان تغيظ رئيسه . وقد انطلقنا من هذه المقارنة لنحدد سيرورة تنكير الحلم وسيرورة الرقابة ، وبذلنا جهدنا لترجمة انطباعنا الاولي الى نظرية سيكولوجية لا تخلو بعد من فجاجة ، لكنها على اقصى درجة ممكنة من الوضوح . واننا لنأمل ان يتيح تعميق دراسة المسألة في المستقبل التحقق من هوية الوظيفتين اللتين وصفناهما بـ «الاولى» و«الثانية» ، واكتشاف ارتباطات متبادلة تؤكد ما قررناه قبليا : التناحر بين الوظيفتين اللتين تحرس واحدتهما

مدخل الوعي وتملك القدرة على اقصاء الاخرى عنه .

وحين يتم التغلبعلى حالة النوم، تستعيد الرقابة حقوقها، وتضرب صفحا عن كل ما فرض عليها اثناء فترة عجزها وتنحيه. ومما يؤكد فرضيتنا السرعة التي يتم بها امحاء الحلم من الذاكرة ، وكذلك التجربة التالية التي كثيرا ما يتاح لي القيام بها : فحين نسرد حلما من احلامنا أو نخضعه للتحليل ، يمكن ان ينبثق على حين غرة تفصيل كنا قد نسيناه تماما ، وهذا التفصيل المنتزع من طيات النسيان يمثل بصورة شبه دائمة اقصر طريق واكثرها امنا ووثوقا للنفاذ الى معنى الحلم الكامن . ولهذا السبب على وجه التحديد كان يفترض فيه ان يغرق في لجة النسيان الذي يمثل المجهود الاخير واليائس للرقابة .

- ١١ -

اذا سلمنا بأن مضمون الحلم يمثل رغبة متحققة ، واذا كان غموض مضمونه من صنيع الرقابة التي تحوّر وتنكّر المـــواد المكبوتة ، يغدو من اليسير علينا ان نحدد وظيفة الحلم. فبخلاف ما هو شائع لدى سواد الناس من راي يرى في الحلم منغصـا للنوم ، نصل الى هذا الاستنتاج الغريب وهو ان الحلم بمثابـة حارس للنوم . وسيقدم لنا الحلم الطفلي هنا خير برهان على ما نقول .

ان حالة النوم ، او الانتقال النفسي من اليقظة الى النوم ، تأتي الطفل عن طريق احساس بالتعب ينضم اليه شيء مــن الاكراه الخارجي ؛ اذ ان اهله ، حرصا منهم على تسهيل ذلك الانتقال عليه ، يبعدون عنه جميع التنبيهات التي قد تصرف ذهنه عن فكرة النوم . ونحن نعلم كيف يتم ابعاد التنبيهات الخارجية ، لكن كيف نستطيع ان نخرس اصوات جميع تلك الرغبات التي تشغل ذهن الطفل وتتركه متيقظا ؟ انظروا الى ام تحاول ان تنيم طفلها : فهذا الاخير لا يكف عن المطالبة اما بقبلة وإمـا بلعبة ،

لكنها لا تلبي سوى جزء من رغباته ، وترجىء بسلطانها تلبية باقيها الى الغد . وواضح ان جميع تلك الخلجات التي تهيج الطفل هي بمثابة عقبات تعيق نومه . من منا لا يعرف القصة المرحة ، قصة الصبي الشرير الذي استيقظ ليلا وطفق يصيح لكي يأتي وحيد القرن ؟ فالصبي العاقل لا يصيح ، وانما يكتفي بأن يحلم بأنه رأى وحيد القرن وراح يلعب معه . والحلم ، الذي يري الطفل رغبته متحققة ، يحظى بثقة هذا الاخير وتصديقه اثناء نومه ؛ وبذلك يستمر الرقاد بعد تلبية الرغبة . وغني عن البيان انه اذا كان الطفل يصدق صورته الحلمية ، فذلك لان هذه الصورة تتلبس اشكالا مشابهة للواقع ، ولأن ذهن الطفل يكون مفتقرا الى الملكة التي لن يكتسبها الا في وقت متأخر ، ملكة التمييز بين خياله وهلوساته وبين الواقع .

اما الراشد ، بالمقابل ، فقد تعلم كيف يجري هذا التمييز. بل انه فهم انه لا جدوى من الافصاح عن امنيات ، ويعرف بالتجربة انه أجدر به ان يكتم صبواته ويلجم رغباته الى ان تأتي الساعة التي سيباح لها فيها ان تتحقق وتلبى بطرق ملتوية وبفضل ظروف موائمة . ويترتب على ذلك انه يندر ان تمثل في نوم الراشد التحقيقات المباشرة للرغبات ، بل انها قد لا تمثل بالمرة ، كما يترتب عليه أن الحلم الراشد الذي يبدو لنا طفلي الطراز يتكشف عند التمحيص عن انه في منتهى التعقيد. ولهذا يحدث لدى الراشد ــ لدى كل راشد سوي بلا استثناء ــ تفاضل في المواد النفسية لا يعرف الطفل نظيرا له . فثمة وظيفة تتم فيه ، وظيفة تتغذى بتجربة الحياة وتمارس بكل حرص وغيرة على جميع ميول النفس وأهوائها تأثير قمع وكف. وتتقلد هذه الوظيفة ، بحكم صلاتها بالشعور وبالنشاط الارادي، سلطانا كبيرا على حياة الراشد النفسية برمتها ؛ والحال انها تدين الكثير من الميول والنوازع الطفلية بأنها في غير محلها وفائضة عن الحاجة ، فتضع بالتالي في حالة كبت جميع

كيفيات التفكير والاحساس المتفرعة من تلك الميول والنوازع .

لكن ما ان تطأطىء هذه الوظيفة ، التي نتعرف فيها أنانا السوي ، الرأس امام ضرورة النوم ، حتى تقسرها الظروف النفسية ـ الجسمانية على تخفيف قبضة رقابتها ، فلا تعود تقاوم المواد المكبوتة الا مقاومة واهية . وليس لهذا التخفيف في حد ذاته من اهمية تذكر ، ولن يكون هناك ضرر كبير من ان تنعتق لحين من الزمن الميول والنوازع الطفلية المكبوتة من إسارها . كل ما هنالك انه ما دام النوم مستمرا فلن تجد منفذا لها لا في الفكر الواعي ولا في النشاط المحرِّك ؛ ومن ثم ، لا مفر من ان تغدو خطرا على النوم ، وهذا الخطر هو المطلوب تلافيه ودرؤه . وينبغي هنا ان نسلم بأن قدرا محدودا من الانتباه الحر يبقى متاحا حتى في الساعات التي نكون فيها غارقين بعمق في النوم . ويقوم هذا القدر المحدود من الانتباه الحر بدور الساهر في حال حدوث ما يستدعي ايقاف نومنا والاستيقاظ ؛ ولولا ذلك ، كيف يتأتى لنا ان نفسر ـ كما يلاحظ بحق عالم الفيزيولوجيا الموقر بورداخ ـ ان كل واحد منا يبقى اثناء نومه حساسا ببعض التنبيهات الحواسية التي لها عليه تأثير خاص : حساسية الأم بصراخ طفلها ، حساسية الطحان بتوقف صوت طاحونه ، وحساسية بني الانسان كافة بوجه عام بمناداة اسمهم ؟ ان هذا الانتباه الدائم التيقظ ينكفىء ايضا نحو التنبيهات الداخلية الناجمة عن الرغبات المكبوتة ، فيجعل من هذه الاخيرة حلما ، اي كما ذكرنا آنفا، تسوية ترضي ميلين اثنين. ان الحلم ضرب من تفريغ نفسي لرغبة في حالة الكبت ، وذلك ما دام يمثل هذه الرغبة وكأنها قد تحققت ؛ وهو يلبي في الوقت نفسه الميل الآخر بسماحه للنائم بالاستمرار في رقاده . و«أنا»نا يسلك هنا سلوك الاطفال ، فهو يؤثر ان يصدق صور الحلم ، ويبدو عليه وكأنه يقول : «أجل ، أجل ، معك حق ، لكن دعني أنم» . والحكم التحقيري الذي نصدره في حالة اليقظة على

الحلم ، على تفككه وعدم ترابطه وافتقاره الى المنطق ، هو في الاغلب الحكم عينه الذي يصدره «أنا»نا النائم على منتجـــات الكبت ؛ ومما يعزز هذا التحقير ويقدم له المزيد من التبرير ان منغصات النوم هذه لا تتوصل الى تحريكنا وإخراجنا عـــن سكوننا . ونحن نبقى واعين لذلك حتى اثناء رقادنا ؛ فعندمـا تشط صور الحلم وتتجاوز الحد في انعتاقها من قبضة الرقابة نقول في انفسنا : «أف ! هذا حلم ليس الا !» ، ونستمر فـي النوم .

قد يعترض علينا معترض بأن هناك حالات ، كحالة الحلم الحصري على سبيل المثال ، يعجز فيها الحلم عن صيانة النوم. لكن ينبغي ان نستنتج من ذلك فقط ان الحلم يؤدي وظيفتين ، مهمة ثانيتهما قطع النوم عندما تدعو الحاجة . والحلم يشبه في ذلك الحارس الليلي الحي الضمير المكلف اولا بوأد جميـــع الاصوات التي قد توقظ السكان ، ولكـــن من دون ان يتردد بالمقابل في أداء الواجب المعاكس ، فيوقظ جميع الناس حين تصبح الاصوات باعثة على القلق ولا يعود في مستطاعه وحده ان يتغلب عليها .

وتتجلى لنا وظيفة الحلم الثانية هذه بمزيـــد من الوضوح حين ندرس مفعول التنبيهات الحواسية على شخـــص نائم . فمعروف ان التنبيهات الآتية من الخارج تؤثر بوجه عام علـــى مضمون الحلم ؛ وقد قام البرهان التجريبي على ذلك ، ونحن ندين به لذلك العدد المحدود من الابحاث التي اجراها الاطباء على الحلم والتي عزيت اليها ، مع الاسف ، اهميـــة مغالى فيها . وهنا ايضا نجد انفسنا في مواجهة لغز : فالشخـص النائم ، الذي يخضعه المجرب لتنبيه ما ، لا يتعرف في الحلم هـــذا التنبيه ، وانما يقوم بترجمته وتأويله ... فكيف يتحـــدد اختياره بين العديد من اشكال التأويل الممكنة ؟ الحق ان هذا الاختيار لا يمكن الا ان يبدو لنا اعتباطيا وتعسفيا ، والحال اننا

نعلم ، من جهة اخرى ، ان العسف النفسي لا وجود له .

يملك النائم ، بالفعل ، عدة وسائل للاستجابة لكل تنبيه حواسي آت من الخارج . فمن الممكن ان يستيقظ ، ومن الممكن ايضا ان يتوصل الى اطالة امد نومه ، وهو يتوصل الى ذلك في الحالة الاخيرة بوسائل هي بدورها في غاية التباين . فاذا حلم ، على سبيل المثال ، بأنه موجود في موقف يتنافى والتشويش الخارجي ، تمكن من التغلب على هذا الاخير : من قبيل ذلك موقف النائم الذي يشكو من خراج مؤلم في العجان ، فيحلم بأنه يمتطي صهوة جواد ، اذ تكون الكمادة المخصصة لتخفيف وجعه قد تحولت الى سرج لمطيته ، وبهذه الصورة يمكنه ان يستمر في النوم . ومن الممكن ايضا ــ وهذه هي الحالة الغالبة ــ ادخال التنبيه ، المدرك في الحلم ، في تداع من الصور ذي علاقة برغبة مكبوتة تريد ان تحقق نفسها . ففي هذه الحال ، سرعان ما يفقد التنبيه واقعيته ويلتحم بمادة النائم النفسية . هكذا حدث لواحد من اصدقائي ان حلم بأنه يتلو مسرحية هزلية ، وفي ذلك تحقيق لفكرة عزيزة عليه . فقد راى نفسه في المسرح ، ومشاهد الفصل الاول تتتالى بنجاح ، وعاصفة من التصفيق تنفجر ... وهنا لا بد ان يكون النائم قد نجح في اطالة امد نومه ، لانه حين استيقظ لم يسمع نأمة او حسا ، وافترض ، وهذا ما ثبتت صحته فيما بعد ، انه قد نُفضت طنافس في الجوار . والحق ان جميع الاحلام التي تحدث مباشرة قبيلالاستيقاظ بفعل ضوضاء ما ان هي الا جهود لنفي الصوت المزعج ، ولاعطائه تفسيرا مغايرا ، ولكسب لحظات اخرى من الكرى .

- ١٢ -

اذا سلمنا بأن العلة الرئيسية لتحريف الحلم او تشويهه تكمن في مقتضيات الرقابة ، فلن يدهشنا البتة ان وجدنا جميع احلام الراشدين تقريبا ترتد عند التحليل الى رغبات إيروسية . اننا لا نتكلم هنا عن الاحلام المشار اليها عادة باسم «الاحلام الجنسية» ، والمتضمنة صورا إيروسية لا يحجبها اي برقع ؛ فكل من حلمها يعرفها ، وان كانت مع ذلك تثير الدهشة دوما بقدر او بآخر ، سواء امن حيث اختيار الاشخاص الذين تتخذ منهم الرغبة موضوعا لها ، ام من حيث الغاء جميع الحواجز التي يحرص الفرد الصاحي على نصبها امام متطلباته الجنسية ، ام اخيرا من حيث تضمنها بعض التفاصيل الغريبة التي تكاد ان تكون شاذة او منحرفة . والحال ان التحليل يبين لنا ان الكثير من الاحلام الاخرى التي لا يبدو للوهلة الاولى انها تنطوي على شواغل إيروسية ترتد ، بفضل عمل التأويل ، الى تحقيق للرغبة الجنسية . ثم ان بعض مواد ذهننا الواعي ، التي

تبدو وكأنها اخذت طريقها الى حلم الليل بوصفها «مخلفات من النهار» ، لا يؤذن لها بالتسرب اليه الا لتقوم بدور الممثلين الصامتين في تمثيل الرغبات الايروسية المكبوتة .

ولنعد الى الاذهان ، تفسيرا منا لوضع لا نتبين له من ضرورة نظرية ، ان الاخلاق والحضارة لم تكبت وتكافح فينا من نوازع بمثل ما فعلت بنوازعنا الجنسية . ولنعد الى الاذهان ايضا ان هذه النوازع تعرف بارع المعرفة ، لدى غالبية البشر ، كيف تتهرب وتفلت من طغيان الوظائف النفسية التي هي من مرتبة اعلى . والدراسة التي قمنا بها في مجال آخر للجنسية الطفلية ، ولمظاهرها الغامضة واللامفهومة بصورة عامة ، تبيح لنا ان نقول ان الارتقاء الطفلي للحياة الجنسية توقف عند نقطة محددة لدى جميع الافراد المتمدينين تقريبا . ومن هنا ، فان الرغبات الجنسية المكبوتة لدى الطفل تصبح ، في زمن لاحق ، النوابض العديدة والقوية لتكوين أحلام الراشدين (١) .

ان تحضيرا خفيا ضروري ولا غنى عنه كيلا يتضمن الحلم ، الذي هو تعبير عن رغبات ايروسية ، اي اثر من الجنسية في مضمونه الظاهر . فمواد الصور الجنسية يجري استبدالها في مضمون الحلم ، بالنظر الى تعذر ظهورها كما هي ، بإشارات او كنايات او اي شكل آخر من اشكال التعبير اللامباشر . ولكن بعكس ما يطلب عامة من هذه الصيغ ، يفترض في صيغ الحلم قبل كل شيء الا تكون قابلة للفهم مباشرة . هكذا تتفسر الواقعة المعروفة على نطاق واسع ، واقعة التمثيل الرمزي لافكار الحلم؛ وهي تستحق منا ، بالفعل ، المزيد من الاهتمام ما دمنا نعرف اليوم ان جميع الحالمين من لغة واحدة يستخدمون رموزا

---

١ ـ راجع كتاب المؤلف : «ثلاثة مقالات في نظرية الجنس» ، ١٩٠٥ .

واحدة . بل انني ساضيف ان وحدة الرموز تمتد في بعـــض الحالات الى ما وراء وحدة الالسن . ولما كان الحالم نفسه يجهل معنى الرموز التي يستعملها ، فان مسألة اصل هذه الرمــوز وطبيعة العلاقات التي يمكن ان تقوم بينها وبين موضوعها تظل مسألة يحيط بها كامل الغموض . لكن الواقعة اكيدة في حـد ذاتها ، ولها بكل تأكيد اهميتها القصوى في تقنية تأويل الحلم. فمن المتعارف عليه انه ليس اسهل على من تتوافر لديه معرفة عميقة بعلم الرموز ذاك من ان يفهم معنى الحلم ، معنى جميع تفاصيله ومعنى بعض من اقسامه ، من دون ان يحتاج الـــى استجواب النائم بصدد افكاره الحلمية . ونحن نقترب هنا من المثل الاعلى الشعبي من جهة اولى ، ومن الجهة الثانية مـــن الطريقة الاثيرةلدى الشعوب البدائية التي لا تفسير عندها لصور الحلم بغير الرموز .

وبالرغم من ان الاختصاصيين في علم رموز الحلـــــم لم يخلصوا الى نتيجة نهائية بعد ، فان في وسعنـــا من الان ان ندرج في عداد المكاسب بعض المعطيات العامة وعددا معينا من الملاحظات الخاصة .

هناك رموز ليس لها سوى تأويل واحد : من قبيل ذلـــك الامبراطورة ، الملك والملكة ، وهي تعني الاب والام . كمـــا ان الغرفة تعني المرأة (١) ، وابواب الدخول والخروج تمثل الفتحات الطبيعية في الجسم . والرموز التي يستخدمها الحلم غالبا ما تفيد في تمويه اشخاص او اجزاء من الجسم او افعال ذات صلة بالجنس . وتستخدم الاعضاء التناسلية بوجه خاص مجموعة من الرموز الغريبة ، وتدخل في تركيب هذه الرموز الاشيـــاء

---

١ ــ جناس بالالمانية غير قابل للترجمة الى العربية . «م»

الاكثر تباينا وتنوعا . والحال اننا نسلم بأن الاسلحة المدببة ، والادوات الطويلة والصلبة ، وجذوع الاشجار والقصب ، تمثل العضو المذكر ، بينما تحل الخزائن والعلب والعربات والمدافىء محل العضو المؤنث في الحلم ، ودافع هذا الاستبدال يسهل فهمه . لكن الرموز الحلمية لا تنطوي جميعها على مثل هـذه الكنايات الشفافة ؛ فحين يقال لنا ان ربطة العنق هي العضو المذكر ، وان الغابة هي الجسم المؤنث ، وان الحركة الصاعدة ، الدرج ، تمثل العلاقات الجنسية ، فاننا نطلب وقتا للتفكير ما دام البرهان على صدق هذه الرموز لما يقم بعد . ولنضف هنا ان معظم الرموز الحلمية ثنائية الجنس ، ويمكن عزوها بحسب الظروف الى العضو المذكر او العضو المؤنث .

وبعض الرموز عامة الاستخدام ، وهي تلاحظ لدى جميع الحالمين الذين يجمع بينهم لسان واحد وتكوين فكري واحد . وبالمقابل ، ثمة رموز اخرى محدودة الاستخدام ، يبتكرها الفرد بحسب حاجاته . وينبغي ان نميز في المجموعة الاولى الرموز المدعوة منها ، بحكم استعمالها في اللغة الدارجة ، الى تمثيل الاشياء الجنسية . ومن قبيل ذلك الرموز التي لها صلـة بالفلاحة : البذار ، الإخصاب ، الخ . وينبغي في المقام الثاني ان نميز الرموز التي يبدو ان صلتها بالاشياء الجنسية تعود الى الازمنة البدائية ، وهي صلة لا يمكن لها ان تولد الا في اظلم المناطق من لاشعورنا . ومهما يكن من امر ، ومهما تكن طبيعة هذه القوة الخلاقة للرموز ، فانها لم تنطفىء حتى يومنا هذا . ومما تجدر ملاحظته ان بعض الاكتشافات القريبـة العهد ، كاكتشاف المنطاد ، جرى استخدامها للحال من وجهة النظر هذه ، وانتقلت الى مصاف الرموز الجنسية .

بيد اننا نخطىء مع ذلك اذا تصورنا اننا نستطيع ذات يوم ، اذا تعمقت معرفتنا بعلم رموز الحلم (مفتاح الاحلام)، ان نستغني عن استجواب النائم عن افكاره في حالة اليقظة ، وأن نعود الى الطرائق البدائية في التأويل . فعلاوة على ان هناك رموزا فردية ، وعلى ان هناك تقلبات لا تقع تحت حصر في استخدام الرموز العامة ، يتعذر علينا ان نعرف مسبقا هل ينبغي ان يؤخذ مضمون الحلم الظاهر بالمعنى الرمزي ام بالمعنى الحقيقي. وما نعرفه بثقة ويقين هو ان المواد ليست جميعها رموزا . فمعرفة الرموز تستطيع ان تهدينا الى سواء السبيل ، الى حد كبير ، عبر ما يبقى غامضا في مضمون الحلم الظاهر ، لكنها لا تغني عن استخدام الطريقة المذكورة اعلاه . وفي احسن الاحوال ، يمكن ان تفيدنا كوسيلة للتنقيب في حال انعدام الافكار الحلمية او عدم كفايتها .

وعلم رموز الحلم يبدو لنا ايضا ضروريا لا غناء عنه سواء أفي تحليل الاحلام المسماة ب «النمطية» ، والمشتركة بين جميع بني البشر ، أم في تحليل الاحلام الفردية المسماة ب «النوبية». واذا كنا قد اكتفينا هنا بالالمام البسيط بهذه المسألة المثيرة للاهتمام ، مسألة التعبير الرمزي للحلم ، فهذا على وجه التحديد لان هذه المسألة تتجاوز بحكم اهميتها نطاق عملنا ؛ اذ هي تقودنا فيما وراء مجال الحلم الى مجال الخيال الشعبي . ففي المجال الاخير هذا نستطيع ان نرى الرمز في اصل القصص والخرافات والاساطير ، وفي روح الهزل والفولكلور ؛ وعن طريق هذا الرمز نستطيع ان نكتشف علاقات صميمة بين الحلم وبين تلك النتاجات المتنوعة . لكننا نعلم ان ليس عمل الحلم هو الذي ابتكر الرمز ، وان هذا الاخير لا يعدو ان يكون الشكل التعبيري لفكرنا اللاشعوري ، وانه هو الذي يقدم للعمل الحلمي

المواد المطلوب تكثيفها ونقلها وإضفاء طابع درامي عليها (١) .

---

١ ـ من الممكن الرجوع ، فيما يتعلق بعلم رموز الحلم ، علاوة على المؤلفات القديمة في تفسير المنامات (ارتيميدور دي دالديس ، شرنر : «حياة الحلم» ، ١٨٦١) ، الى كتاب المؤلف : «تفسير الاحلام» ، وكذلك الى الابحاث الميثولوجية للمدرسة النفسية ـ التحليلية وأبحاث و. شتيكل («لغة الحلم» ، ١٩١١) .

- ١٣ -

من المحقق اننا لا نزعم اننا تطرقنا الى جميع المشكلات التي تطرح نفسها في موضوع الحلم ، بل لا نزعم اننا وجدنا حلا كاملا للمشكلات التي اثرناها هنا . والقراء الذين تثير المسألة اهتمامهم بصورة عامة يستطيعون الرجوع الى كتاب سانكته دي سانكتيس : «الحلم» ، تورينو ١٨٩٩ . أما اولئك الذين يبحثون عن عرض أكمل لنظريتي الشخصية في الحلم ، ففي مستطاعهم ان يجدوه في مؤلفي : «تفسير الاحلام» ، لايبزغ وفيينا ١٩٠٠ .
ولنحدد ايضا ما الاتجاه الذي نتمنى لو يسلكه الراغبون في متابعة درس الحلم . فببياننا في الصفحات السابقة ان تأويل حلم من الاحلام يقتضي استبدال مضمونه الظاهر بأفكاره الكامنة ، وبعبارة اخرى ، تفكيك الحبكة التي حاكها العمل الحلمي ، اكون قد طرحت من جهة اولى مجموعة من المشكلات السيكولوجية الجديدة المتعلقة بهذا العمل والمتعلقة ايضا بطبيعة ما أطلقت عليه اسم الكبت وبتكوينه ؛ وأكدت من جهة ثانية وجود افكار كامنة للحلم ، اي وجود مواد وفيرة يمكن ان تتولد

عنها تشكيلات نفسية من المرتبة الاولى ، تضارع في كل شـــيء منتجات العقل السوية ، لكنها لا تستطيع ان تتجلى للشعور الا في ثياب الحلم التنكرية . هذه الافكار الكامنة موجودة لـــدى جميع الناس ، ما داموا كلهم ، وحتى الأسوياء الذين لا تشوبهم شائبة منهم ، عرضة لان يحلموا . وانما بعلاقات هذه الافكـار بالشعور والكبت ترتبط المسائل اللاحقة ، ذات الاهمية الاولى في علم النفس ، لكن التي لا مفر من إرجاء حلها الى اليوم الذي يتم فيه التوصل ، عن طريق التحليل ، الى توضيح اصل بعض التشكيلات السيكوباتية الاخرى كالأعراض الهستيرية والوساوس الاستحواذية .

صدر عن دار الطليعة

مؤلفات سيغموند فرويد

- مدخل الى التحليل النفسي
- نظرية الاحلام
- النظرية العامة للامراض العصابية
- محاضرات جديدة في التحليل النفسي
- ثلاثة مباحث في نظرية الجنس
- خمسة دروس في التحليل النفسي (طبعة ثانية)
- مختصر التحليل النفسي
- علم النفس الجمعي وتحليل الانا
- علم ما وراء النفس
- الحلم وتأويله (طبعة ثالثة)
- مستقبل وهم (طبعة ثالثة)
- قلق في الحضارة (طبعة ثانية)
- التحليل النفسي والفن (طبعة ثالثة)
- الهذيان والاحلام في الفن (طبعة ثانية)
- ابليس في التحليل النفسي
- أفكار لازمنة الحرب والموت (طبعة ثانية)
- مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي
- موسى والتوحيد (طبعة ثالثة)
- التحليل النفسي للهستيريا : حالة دورا
- **حياتي والتحليل النفسي**
- **مسائل في مزاولة التحليل النفسي**

هذا الكتاب

كان من اعرق أحلام الأنسانية ان تجد مفتاحاً لتفسير أحلامها . ولقد تصدت لهذه المهمة في البدء الميثولوجيا الشعبية ، ثم الفلسفة ، قبل ان يتنطع لها أخيراً علم النفس . لكن المساهمة الكبرى في هذا المجال كانت للتحليل النفسي ، فمع الفرويدية تحول تفسير الأحلام الى علم .

وهذا الكتاب ، الذي يُترجم لاول مرة الى العربية ، لا يقدم « مفتاحاً » لتفسير الأحلام فحسب ، بل ايضاً مفتاحاً ومدخلاً لمجمل نظرية فرويد في التحليل النفسي .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ل. ل.
او ما يعادلها